روايات
نجيب الكيلاني

١٦

إعترافات عبد المتجلّي

مؤسسة الرسالة



تطلب جميع منشوراتنا من:
الشركة المتحدة للتوزيع
بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة ☎ ٣٢٤٣. ٦ - ٨١٥١١٢ ✉ ٧٤٦٠
دمشق - حجاز - شارع مسلم البارودي - بناء خولي وصلاحي ☎ ٢٢١٢٧٧٣ - ٢٢٢٦٤٤٣ ✉ ٢٦٢٥
برقياً بيوشران
عمان - دار البشير - العبدلي - مركز جوهرة القدس التجاري ☎ ٦٥٩٨٩١ - ٦٥٩٨٩٢ ✉ ١٨٢٠٧٧

اعترافات عبد المتجلي

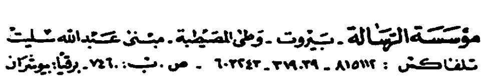
(قصة طويلة)

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الثالثة

١٤١٨هـ - ١٩٩٧م





مؤسسة الرسالة - بيروت - وطى المصيطبة - مبنى عبدالله سليت
تلفاكس: ٨١٥١١٢ - ٣١٩٠٣٩ - ٦٠٣٢٤٣ - ص. ب: ٧٤٦٠. برقياً: بيوشران

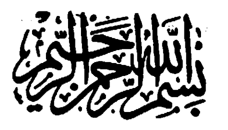
Al-Resalah BEIRUT / LEBANON - TELEFAX : 815112 -319039 - 603243 - P. O. BOX : 117460
PUBLISHING HOUSE
E-mail: Resalah@Cyberia.net.lb : البريد الإلكتروني

نجيب الكيلاني

إعترافات عبد المتجلّي

(قصة طويلة)

مؤسسة الرسالة



(١)

هذه كارثة كبرى بكل المقاييس، الحادثة التي أُعلن عنها حقيقة.. نعم حقيقة تفقأ عين الشمس.. والناس يضحكون، شر البلية ما يضحك.. اللصوص يسرقون الجيوب، ويجردونها من المال والمعادن الثمينة.. وحتى البطاقات الصحية والشخصية والعائلية والمستندات، ويسرقون الدجاج والحيوانات، ويختلسون، ويتفنَّنون في وسائل النصب والدجل، ويعتبرون ذلك في البلد خفة يد وشطارة.. وحقاً أيضاً.. أليسوا محرومين مقهورين مستغلين؟؟ وهناك من يسرقون الأضواء والشهرة والسلطة والانتخابات.. أصبح الأمر مألوفاً في زماننا، وكأنه العرف السائد... ممكن أن يحدث ذلك!! وقد لا يثير غرابةً.. لكن الوضع هذه المرة يختلف..

الخبر يقول: «ويسرقون الونش».

ضرب «عبد المتجلي القصاص» كفاً بكف، وصرخ وقد شحب وجهه الأسمر، واتسعت عيناه في دهشة:

— «كيف يسرقون الونش؟؟ إن ذلك غاية الوقاحة والفجر والاستهتار».

قال أحد الفلاحين، وقد توقف عن غزل الصوف:

ــ «ما هو الونش؟؟»

ــ «آلة كبيرة لرفع الأحمال الثقيلة.. ضخمة كوابور الحرث.. «كالكراكة» التي نطهر بها طين الترعة.. ولها ذراع طويلة.. وتصدر هديراً كماكينة الطحين.. الونش لا يمكن سرقته أو إخفاؤه.. تلك هي القضية».

وانتشر الخبر في أنحاء القرية الصغيرة المنزوية في وسط الدلتا، أهل «كفر أبو سالم» يتحدثون عن سرقة الونش، بين ساخر وذاهل وغير مكترث، وعبد المتجلي الذي قرأ الخبر في الصحف يجري هنا وهناك، ويصور الحادثة بصورة تجعل منها مأساة قومية لها دلالاتها الخطيرة.

قال: «إنه تحد خطير لإرادة الأمة».

ضحك حضرة العمدة «الحاج إبراهيم صوان» وعلق:

ــ «المهم أن عبد المتجلي وجد قضية ينشغل بها عنا».

وقالت أمه العجوز الست «رمّانة»:

ــ «أنت مغرم بالبحث عن المتاعب».

قال لها في إصرار:

ـ «سأسافر إلى القاهرة للبحث عنه».

وهتفت أخته بدرية:

ـ «إنك تعطي الناس فرصة للسخرية منا».

ـ «الحمقى وحدهم هم الذين يفعلون ذلك».

ـ «ليس لنا بالونش المسروق أي علاقة..».

ـ «إنه مصيرنا..».

ـ «الدنيا مليئة باللصوص».

ـ «لكنهم في العادة لا يسرقون الأوناش».

ـ «بل يسرقون ويخطفون البشر. هل الونش أعز عليك من الآدميين؟.».

ـ «أنتم في واد وأنا في واد آخر. القضية خطيرة».

ـ «وأخطر منها أن تهمل عملك وتسافر..».

هز كتفيه في ضيق وقال:

ـ «إجازة بدون مرتب..».

أردفت بدرية:

ـ «ثم تعود خاوي الوفاض».

ـ «سأقلب الدنيا».

ـ «أخاف أن تنهد على رؤوسنا..».

ـ «رؤوسنا ما زالت أسفل.. نحن في القاع لا نخشى السقوط».

عبد المتجلي يعمل موظفاً بمجلس القرية، ليس له غرفة أو مكتب، كما أنه لا يعرف توصيفاً لوظيفته تلك التي يتقاضى عليها راتباً شهرياً محدوداً، فمؤهله دبلوم الثانوية الصناعية قسم برادة ولحام، ولكنهم لا ينتدبونه إلا في القليل النادر من الأعمال الكتابية، وحتى هذه لم يدعه أحد إليها منذ أكثر من عامين، والسبب أنه يدقق في كل ورقة يكتبها، أو توقيع يزيلها به، ويتوقف كالجبل لا يتزحزح إذا ظن أن هناك شبهة تزوير أو تحايل، وبعض الظن إثم، ولهذا ضاق به رئيس المجلس ومجلس الإدارة، وفضلوا ألا يستعينوا به في شيء، وقال المسئول الكبير له:

ـ «إذهب.. لا نريد منك سوى التوقيع في سجل الحضور والانصراف.. وستأخذ مرتبك بالكامل آخر كل شهر..».

هاج وماج، وتحدث عن البطالة المقنعة، وعن الأجر الحرام الذي يتقاضاه دون عمل، وخطب خطبة عصماء عن الضمير والانتماء الوطني، والقيم العريقة، وتعاليم الله، لكن كلماته قوبلت بعاصفة من الضحك الممزوج

بالاستهجان، وفكر أن ينتقل إلى قرية مجاورة لعله يجد فرصة للعمل والانتاج، لكن أخباره ومواقفه تسبقه إليها، فتفشل المساعي.. لقد كان بمجلس القرية خمسة موظفين في أوائل الستينات، واليوم فيه مائة وخمسة والواقع أن الذين يعملون فعلاً لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة.. يقول عبد المتجلي الذي لم تتح له فرصة التعليم في معاهد الأزهر:

ـ «أموالنا حرام.. طعامنا حرام.. حياتنا نجاسة».

أطلقوا عليه بالأمس «عبد المتجلي» المجذوب!! والمجنون!! وبالأمس أنعموا عليه بلقب جديد «عبد المتجلي الونش» أو «عبده الونش» قياساً على الفيلم السينمائي الشهير «حنفي الونش» برغم اختلاف الأسباب والظروف.

ذهب إلى رئيس المجلس، وقدم له طلباً بإجارة شهرين بدون مرتب، ضحك الرئيس، وخلع نظارته الشمسية الوجيهة المستوردة، ثم اضطجع على مقعده الوثير وقال:

ـ «وما حاجتك إلى إجازة... أنت دائماً مجاز».

ـ «أريد أن يكون تحركي في إطار القانون».

ضحك الرئيس حتى بدت نواجذه المتسخة بالنيكوتين، ثم أشعل سيجارة «مارلبورو» وقال:

ــ «إن وعدي لك هو القانون».

تمتم عبد المتجلي في ألـم:

ــ «يبدو أن القانون هو الآخر في إجازة طويلة..».

كاد الرئيس ينفجر وهو يقهقـه بصوت عـالٍ، وأردف والرذاذ يتناثر من فيه، والعرق يندي وجهه المحتقن، وعنقه الغليظ:

ــ «نعم في إجازة.. لكن.. بمرتب».

وأصر عبد المتجلي على أن يكون كل شيء في إطاره الرسمي، وتم له ما أراد لمدة شهر واحد فقط، وخرج وهو أكثر إصراراً وعزماً على المضي في سبيله، لا بد أن يسافر، وأن يبحث عن الـونش المفقـود. مهمـا كلفـه ذلـك من تضحيات، لسوف يبيع نصيبه في البقرة التي يمتلك نصفها كي يـدبر أمـره وأمر بيتـه، الجميع يسخـرون من أفكـاره الجنونية، وحماسته الغريبة، حتى أمه وأخته بدرية، والناس جعلوا من الموضوع مادة ثرية للتندر، وهـو لا يعبأ بكـل ذلك، عندما يقتنع فلن تستطيع قوة أن تحرفه عن غايته، إن له منطقه الخاص، وله أحكامه التي يمليها عليه ضميره.. ولم يكن ييأس بسهولة، لقد فشل ألف مرة، أصبح حليف

النكسات والهزائم، حدث ذلك عندما اصطدم بالعمدة بالنسبة للأتاوات التي يفرضها على الفلاحين، وأيضاً تعرض لمساءلات قانونية كادت تودي به إلى السجن، عندما عجز عن إثبات وجود اختلاسات في ميزانية المجلس، وكذلك عندما أوسعوه ضرباً على قدميه بالفلقة في المركز بسبب تصديه للإدارة الممالئة لتجريف الأراضي الزراعية وتخريبها، لكن تلك المرة استطاع أن يوقف التجريف في «كفر أبو سالم»، فانتقل تجار الطين إلى قرى مجاورة. . .

الشيء الهام أن الناس جميعاً يحبونه، لأنهم مؤمنون بصدق توجهاته، وحسن نواياه، وأنه لا يسعى من أجل نفع ذاتي، أو غرض ملوث، ومن ثم كانوا يشفقون عليه، بعضهم يقول: «عبد المتجلي» ينفخ في قربة مقطوعة. . وآخرون يهمسون: «إنه يتصدى لمفاسد أكيدة، لكنها أكبر من طاقته بكثير، وهو ضعيف لا حول له ولا طول»، وقال أحد الحكماء في القرية: «إنه صوت أصيل يجب أن يظل مدوياً. . ويجب أن نظل نسمعه. . حتى ولو لم يأت بنتيجة». . الأطفال في القرية متعلقون به بصفة خاصة، إنه يعطيهم دروساً في الحساب والإملاء بالمجان، ويروى لهم القصص الشيقة السلسة، ويحفظهم قصار السور، وبعض آيات القرآن، ويعلمهم الوضوء والصلاة. . على الرغم من انشغاله بأعباء زراعة الفدان الذي تملكه الأسرة في «حوض

القتيل»، وهو يبعد عن القرية بثلاثة كيلومترات، وهو يقضي وقت فراغه ـ وما أطوله ـ هائماً في القراءة..

قالت له أمه «رمانة»:

ــ «لو تزوجت يا عبد المتجلي لما حدث ذلك كله».

همس في اقتضاب:

ــ «لتتزوج بدرية أولاً..».

قبل سفره إلى القاهرة بيوم تصادف أن يكون ذلك اليوم يوم جمعة، وانتهز فرصة الحشد بعد الصلاة، ووقف فيهم خطيباً:

ــ «... الونش هو المستقبل.. إنهم سرقوا المستقبل.. نحن في عصر التكنولوجيا.. أعرف أنكم لا تعرفون معنى هذه الكلمة.. التكنولوجيا هي الرخاء والأمن والاستقرار والعدل.. من أجل هذا سأسافر.. لا أطلب منكم سوى الدعاء.. إنها رحلة لوجه الله.. يجب أن نعرف حقيقة ما يجري.. من الذي سرق الونش.. وسرق معه أحلامنا؟؟ يجب أن نكشف القناع، ونعرف الخونة، ونسلمهم لحبل المشنقة إلا إذا تابوا وأنابوا...».

وساد لغط في المسجد، ووقف الحاج إبراهيم صوان العمدة وصاح بأعلى صوته:

ـ «الخطابة في المساجد يا عبد المتجلي ممنوعة إلا بأمر من وزارة الأوقاف.. الوحيد الذي يحق له الخطابة هنا يا عبد المتجلي هو الخطيب الرسمي للمسجد.. إجلس أو صلِّ السُّنَّة يا حبيبي.. هل فهمت؟؟».

قال عبد المتجلي وهو يكظم غيظه:

ـ «حتى الكلام يا حضرة العمدة أصبح محرماً؟».

ـ «لكل مقام مقال يا عبد المتجلي..».

ـ «وأنا أتحدث عن السرقة.. ولها حد من حدود الله.. أليس كذلك؟..».

ـ «دع العلم لأهل العلم يا جاهل..».

سادت غمغمة تنبي عن ضُجر مكبوت، ران الصمت، شحب وجه عبد المتجلي، حاول أن ينطق، لكأنما أصيب بالخرس، همّ بفتح فمه، تحرك لسانه وشفتاه، لكن الكلمات ظلت حبيسة عصية، شعر برأسه يدور، خيوط العرق تسيل على وجهه النحاسي الغارق في البراءة والطيبة، والمشهد كله بدا كجزء من شريط سينمائي متوقف، وعيون المصلين تنظر، والعمدة واقف كجذع نخلة عجوز، الشرر يتطاير من عينيه، وصفق إمام المسجد ليقطع الصمت ونادى بأعلى صوته:

ـ «قوموا إلى بيوتكم يرحمكم الله».

كان الجدل محتدماً بين الخلق وهم يتزاحمون عند باب المسجد، على الوجوه ترتسم ملامح الرفض والغضب، الكلمات هي الأخرى تتزاحم وتتشابك، وأشعاث النظرات تتقاطع، ومع ذلك فقد كانت الحركات والخطوات بطيئة برغم توترها، وشعور عام يسود الجميع بأن عبد المتجلي قد أهين، وأنه طيب القلب، لا يضمر شرّاً لأحد، ولا يستحق أن يعامل بهذه الطريقة، وخاصة أن المسجد قد استعمل لأغراض كثيرة كالدعايات الانتخابية، وتعليمات حضرة العمدة للفلاحين، والإعلان عن الجنائز ومواعيدها، والتوعية السياسية والصحية وغيرها. . ماذا لو تركوا عبد المتجلي ينفس عن كروبهم؟

قال الحاج «إسماعيل المغربي» وهو فلاح وتاجر أقمشة وحافظ للقرآن الكريم، ومعروف عنه المرح وخفة الروح والذكاء أيضاً:

ـ «قالوا لجحا: أين بلدك يا جحا؟؟ قال التي فيها امرأتي. . مسكين عبد المتجلي. . إنه لم يتزوج. . ».

* * *

استدعى حضرة العمدة عبد المتجلي عقب صلاة العصر، أراد أن يلقنه درساً جديداً، على الرغم من ثقته بأن

عبد المتجلي لا يستوعب الدروس جيداً، لكن الأمـر هذه المرة يختلف، إنه يتحدث عن الخونة والخيانة والمشنقة، وهـذا أمر يمس الأمن العـام، ويدخـل في إطار التـطرف والحركات الهدامة، ولو نما إلى علم المسئولين أمر كهذا لعنفوا العمدة أشد التعنيف «هذا المجنون يهرف بما لا يعي، ولا يقدر العواقب، ولسوف يضعني في موضع الحرج والاتهام بالإهمال.. صدق من قالوا عن قريتنا أنها «كفر كلام» نعم.. فالناس بضاعتهم الكلام.. والفعل قليل.. ولذا فإن «كفرنا» أفقر بلد في المنطقة كلها إن لم يكن على مستوى محافظة الغربية بأسرها.. إذا لم يعقل عبد المتجلي الأمور فسوف أكسر رأسه..».

ـ «هذا هو الإنذار الأخير يا عبد المتجلي».

ـ «وأنا أرفض الإنذار».

«لمصلحة من؟؟».

ـ «لمصلحة البلد.. أين أتكلم إذن؟».-

إستشاط العمدة غضباً وقال:

ـ «في الصحافة.. في التليفزيون.. في الإذاعة.. في مجلس الشعب.. في بيتكم الله يخرب بيتك.. كفى ما نحن فيه من كرب..».

فكر عبد المتجلي أن يرد له الصاع صاعين، لكن شيخ

الخفراء وثلاثة معه يحيطون به كـأسوار الـزنزانـة، ولشيخ الخفراء بالذات كف غليظة طرشاء ـ كما يقولون ـ ولا يتقن شيئاً أكثر من إتقانه لتنفيذ أوامر العمدة، إذا هوت تلك اليد على قفاه، فستورثه عار الأبد.. لقد ضربوه فعلاً قبل ذلك في المركز، لكن على قدميه في فلقة...

غامت عيناه بالدموع، بدت المرئيات من حـوله وراء حاجز زجاجي معتكر، أشباح معتمة تتكلم وتتحرك، شعر فجأة بيد تربت على كتفه، أغمض عينيه ثم فتحهما، فرأى العمدة يبتسم ابتسامته الثعبانية ويقول:

ـ «البلد فيها حركة اعتقالات يا عبد المتجلي.. ألم تسمع عنها يا إبني؟؟».

طـأطأ عبـد المتجلي رأسه في حسـرة وتمتم بصـوت جريح:

ـ «سمعت».

ـ «لو سمعت لعقلت ولحذرت..».

ـ «لم أنضم لحزب طول حياتي.. ورؤيتي محدودة بالقرية.. تغيرت لهجة العمدة حينما عاد يقول في حزم»:

ـ «وما شأن القرية بالونش؟».

ـ «إنه دلالة على ما قد يتهددنا جميعاً..».

تنهد العمدة في ملل وقال:

ـ «قل ما شئت خارج «كفر أبو سالم».. وفي القاهرة قبل أن تبحث عن الونش يجب أن تبحث عن أخصـــائي للأمراض النفسية..».

* * *

(٢)

كانت بدرية تشعر كأن جبلاً يجثم على صدرها، فتكاد تختنق، أما يكفيها ما تعاني من الفراغ الممل القاتل؟ إنها تعيش منذ أن حصلت على الثانوية التجارية في انتظار خطاب القوى العاملة، وقد مر عامان ثقيلان، دون أن يتحقق الأمل، وخطيبها المدرّس بالإبتدائي لم يستطع حتى اليوم أن يدَّخر ما يكفي بالكاد لفرش غرفة أو غرفتين، وأخوها عبد المتجلي عاجز عن أن يجد مصدراً إضافيّاً لزيادة الدخل، ومع ذلك فهي تتحمل صابرة، لكن الشيء الذي لم تعد تطيقه هو تصرفات شقيقها الوحيد، إن أهل (الكَفْر) ينظرون إليه ساخرين، وبعضهم يعلنها صراحة و أنه مصاب بنوع من جنون العظمة أو الهوس أو الفصام، هم لا يعرفون الفرق بين هذه وتلك، ولا يهمهم أن يعرفوا، لكنهم يرددون أحكامهم على عبد المتجلي بدون حساب أو تدقيق، ولم تعد بدرية تستطيع أن تتكيف مع هذه التعليقات الهامسة أحياناً والعالية النبرات أحياناً أخرى، وهي لا تدري ماذا تفعل، تألمت حينما عاتبها خطيبها «أشرف سليم» وأبدى عدم ارتياحة لأفكار وتصرفات «عبد المتجلي»، إنها متأكدة ألف في المائة من ذكائه وإخلاصه، لكنه لا يحسن اختيار المواقف، طاقاته في

حاجة إلى «منظم» كالذي يضعونـه في أنابيب الغـاز، قد تستغرقه أمور تافهة أو ثانوية ويهمل كبريات القضايا، ويا ليته يعترف بذلك، بل يصر إصراراً جازمـاً بما يعتقـد أنه أولويات من وجهة نظره، فمثلاً قضية الرشوة التي نشر عنها في وزارة الصناعة أهم لديه من نقص مياه النيل التي تهدد المستقبل الزراعي في القرية، وقضية القروض البنكية التي هرب بها رجال أعمال وعصابات تؤرق ليله، وتتعس نهاره، وينسى إزاءهـا الآفـات التي تكـاد تقضي على محصـول القطن، وانخفاض سعر الدولار وتـأثيره على قيمـة الجنيه المصري تدفع في نفسه موجات من الحزن والأسى، على الرغم من أنه لم يمسك بدولار واحد في حياته، وخسائر القطاع العام ومهازله وعـدم اقتناعـه بما يجـري من فساد تـوشك أن تـدفعه إلى الجنـون، ومع ذلـك فإن الشبـاب المثقف من أهل القرية يتفهمون وجهة نظره وإن كانوا لا يتحمسـون لفعل شيء ملمـوس من أجلهـا، والفـلاحـون عاتبون عليه لأنه يعرف أن مشكلة «علف الماشيـة» الذي شح وارتفعت أسعاره أولى بالاهتمام والمتابعة من التصنيع الثقيـل، وإدخـال التكنـولـوجـيـا المـتـطورة، وكـان «عبد المتجلي» يكرر التوضيح لوجهة نظره، وهي أن حل التنـاقضـات لا يتم إلا بـالبحث عن الجـذور، وتعمق الأسبـاب، ويذكـرهم دائماً بـأنه تصـدى للعمدة عشـرات

المـرات، وضرب في المـركز بسبب ذلـك، وأنه تحـدى المسئولين في أزمة السماد والمبيدات والسوق السوداء وأزمة الدقيق والسكر والـزيوت المـدعمة وغيـر ذلك من همـوم (الكَفْر) ومآسيه، بـل إنه ما زال على استعداد لأن يعاود الكرة، ويتحمل العنت كلما دعت الضرورة إلى ذلك، ومن منطلق اهتمامه بكبريات الأمور، فقد هزته سرقة الونش هزاً عنيفاً، وأورثته قلقاً ما بعـده قلق، وأحزانـاً ليست بعدهـا أحزان، فهو يعتقد أن الفساد يخرج له لسانه، ويهزأ منه، ويصفعه على قفاه، إن سرقة الونش في رأيه احتقار للرأي العام، وإهدار لقيم الفضيلة والعمل والطهارة، وهي إساءة إلى العمل السياسي والاقتصادي في الدولة، وانتهاك لآدمية الإنسـان، وسحق لأحـلامـه وتـطلعـاتـه، وتلويث لشـرفـه وكرامته.. لا بـأس أن تسرق دراجـة أو دجاجـة أو حتى سيارة، أما أن يسرقوا «الونش» في وضح النهار، فمعناه أن الأمة بأسـرها على وشـك الانهيار.. إن القضيـة في نظر عبـد المتجلي ليست بالبسـاطة أو التفـاهة التي يتصـورهـا النـاس، ولا بالخصـوصية التي تجعلهـا بين أيدي رجـال الشرطة وحدهم، كما أنه لا يمكن الاقتناع بقيـدها «ضـد مجهول» لا بد من البحث عن هذا المجهول حتى يصبح معلوماً، ولن يتم ذلك إلا في إطار جهد شعبي، ووعي عام مشترك.

وقف وسط غرفته وحيداً، وأخذ يصرخ: «أيها الناس، العدو أمامكم، والبحر من خلفكم، أنتم محاصرون، فتحركوا وإلا غشيكم موج من فوقه موج، وأقبلت عليكم الظلمات بقضها وقضيضها، أنتم نائمون والونش يسرق في وضح النهار، من يدري؟؟ أيمكن أن يكون السارق إسرائيل أو أمريكا، أو رأس كبيرة ذات سلطة ونفوذ؟ إنهم يمتلكون القنبلة الذرية.. ونحن ننحر الذبائح في العيد الكبير، ولا يأكل منها إلا المحظوظون.. تسقط الاشتراكية والرأسمالية، والفردية والتعددية، أيها الناس.. الطوفان.. الطوفان».

دخلت أمه العجوز مذعورة وهتفت والدموع تغرق وجهها:

ـ «لقد أصابك شر يا ولدي.. ارحمني وقم إلى فراشك.. إن السهر سيقتلك..».

إحتضنها في حب، ضمها إلى صدره ضمة أودعها كل اللهفة والحنان، تمتم: «لشد ما أصبحت نحيلة!! الذئاب يسرقون طعامك كما سرقوا عمرك وعمر أبي... وكما سرقوا الونش الضحية..».

قالت وهي تنهنه:

ـ «تعود إلى الونش مرة أخرى؟».

ـ «لن أتركه ما حييت. .».

ـ «إنك يا ولدي ترمي بنفسك إلى طريق مليء بالضباب ليتك تفيق إلى نفسك».

جال بنظراته المرهقة عبر الغرفة الكالحة، وقال بثقة وإخلاص يحسد عليهما: «إنه قدري. . أحياناً أجد نفسي مدفوعاً بقوة قهرية لا فكاك منها، أحاول أن أبطىء أو أتوقف فلا أستطيع. . يسمونه القصور الذاتي. . كلما تحدث شيخنا عن الجبر والاختيار في العقيدة يكاد عقلي أن يذهب، فأنا حتى الآن لا أعرف الحدود الواضحة بين ما هو إجباري وما هو اختياري. . لكني واثق أن عدالة الله وجزاءه تنهض على حرية الإرادة. .».

لم تكن أمه على دراية بما يقول، إنه من زمن يدمن قراءة الكتب، ويتبحر في علوم ليست من شأنه، إن جهلها يحجب عنها الآفاق التي يحلق فيها، وفوق كل ذي علم عليم.

ـ «أنا غير مقتنعة يا ولدي، وإن كنت لا أفهم ما تقول».

إندفعت بدرية إلى الداخل، أمسكت يده بأناملها المرتجفة، وقالت ضارعة:

ـ «إذا عثرت على الونش، فهل ستحضره لنا؟».

ـ «لا . . سأرده لأصحابه».

ـ «إنـه مملوك لشركـة رأسمالهـا ملايين كمـا يقـول الناس».

ـ «ليكن . . الحق لأهله».

ـ «ومن كلفك بذلك يا عبد المتجلي؟».

ـ «ضميري . . ».

تـركت يـده، نـظرت إلى الـوجـه الأسمـر الشـاحب المرهق، والجفون المسهدة. وقالت:

ـ «الناس هنا لا يفكرون إلا في مصالحهم . . ».

ـ «النمل والنحل أفضل . . ».

ـ «لو لم يفعلوا لأكلوا التراب».

ـ «لـو لم يفعلوا يا بـدرية . . لَجـاءتهم الأرزاق من فوقهم ومن تحت أرجلهم . . ».

تدخلت العجوز:

ـ «دعيه يا ابنتي».

ووجهت إليه قولها: «عقلك في راسك».

هز رأسه: «واعْرِفْ خلاصك . . وأنا عرفت».

* * *

بالأمس التقى به الحاج «إسماعيل المغربي» وقال له مداعباً:

ـ «أنت تتحدث عن التكنولوجيا يا عبد المتجلي، مع أنك لم تزل تروي الأرض بالطنبور والشادوف، وتشقها بالمحراث، كما كان يفعل أبوك... وكما كان يفعل الفراعنة..».

تفكر عبد المتجلي برهة، ثم ابتسم، ثم قهقه عالياً:

ـ «أنت على حقّ يا عم إسماعيل..».

واستطرد وهو يلوح بسبابته اليمنى:

ـ «أريد أن يكون الكومبيوتر حقاً لكل مواطن».

أمسك الحاج تهامى بكتفه وقال وهو يرمقه بنظرات جادة:

ـ «أتمزج الجد بالهزل؟؟»..

ـ «كل الجد».

ـ «إنني لا أصدق ما تطلقه من شعارات».

ـ «لماذا؟؟».

ـ «الرغيف أولاً».

ـ «هذا مقولة ساقطة.. نرددها دائماً.. فالرغيف

موجود، والله لن يحرمنا من الحد الأدنى لحياتنا الحيوانية.. والكمبيوتر لن يمدنا بالأرقام والمعلومات فحسب، ولكن سيثمر خبزاً وفاكهة.. وشيكولاتة أيضاً..».

وتجمع وقتذاك عدد من الشباب، وكانوا يضحكون من أعماقهم، ويمدون حبال الحوار معه، حتى ينعموا بمزيد من الضحك، وهو يجادلهم بكل صدق وجد سواء أكانوا يمزحون أو يجدون، إنه يجد متعة في أن يجيب، ويتحدث عن يقين الدارس المتعمق المتبحر، فالقضية في ذهنه أشد وضوحاً مما يتصورون، وإن كان البعض يظن أنه ليست هناك قضية حقيقية على الإطلاق، وهم لا يجدون ما ينفقونه على تدخين الحشيش، ولهذا أدمنوا الكلام حتى أصبح نوعاً جديداً من المخدر لا يقع تحت طائلة القانون الجنائي، وإن كان يدخل أحياناً في باب الانحراف السياسي، وهنا علق الحاج إسماعيل قائلاً:

ـ «أصبح الكلام ـ في بعض الأمور ـ أشد خطراً من المخدرات.. أنا شخصياً إذا خيرت بين قضية رأي وقضية مخدرات لاخترت الأخيرة.. لماذا؟؟ لأن قضايا المخدرات يستطيع المحامي فيها أن يصول ويجول، فيجد الثغرات، ويبطل الأدلة، ويربك الشهود، وكثيراً ما يحصل على البراءة.. أما في قضايا السياسة فالمتهم مجرم وإن ثبتت

براءته. . هل سمعتم عن القوائم السوداء. . إنها شيء آخر غير السوق السوداء. . إذا لم يكف أهل قريتنا عن الاتجار في الكلام فسوف تسحقهم الدبابات، وتدكهم الطائرات. . وسيصيبهم ما أصاب أهل كرداسة في عام ١٩٦٥ م أي قبل النكسة بعامين. .».

وارتشف الحاج إسماعيل من كوب الشاي الثقيل، ثم قال:

ـ «عبد المتجلي عبقري من نوع خاص، لكنه كثيراً ما يبدد طاقته الثمينة هباءً، الفرق بين مخه ومخ الياباني هو الفرق في الإدارة الجيدة التي تقوم على أساس علمي ومنطقي».

* * *

يقول الحاج إبراهيم صوان العمدة الداهية: «الجنون فنون. . ولولا أني أريد للبلد أن ترفه عن نفسها، وتخفف من أعبائها، وتنفس عن همومها الأزلية، لما سمحت بهذا العبث الذي يقارفه عبد المتجلي، إنه أشبه ما يكون «بالبلياتشو» الذي يتقافز على مسرح السيرك فيضحك الناس. . ألا يمكن أن نعتبر ما يفعله ملهاة كتلك التي تقدم على مسرح القطاع الخاص؟؟».

* * *

الشيخ «سمعان الطوخي» إمام وخطيب المسجد رجل في الخمسين من العمر، ملتزم بالتعليمات الرسمية، ويتلو الخطب التي تبعث بها وزارة الأوقاف بدون إضافة أو حذف، وعلى الرغم من تبرمه بذلك إلا أنه ـ بعد طول تجربة ـ أيقن أن ذلك هو طريق السلامة والاستقرار، فالخطب عنده أمر ونهي، يركز على أصول العقيدة وأعمدتها الخمس، ويدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وليس لديه أدنى استعداد للمساءلة أو النقل أو الجزاء، وهو يعلم أن زملاء له، قد أخرجهم فساد الحال في البلاد عن الهدوء والكياسة، فسيقوا إلى المنافي أو المعتقلات، والعاقل من اتعظ بغيره، وسلك طريق الحكمة والموعظة الحسنة، وهو يفهم الحكمة والموعظة فهما مرتبطاً بالنهج الذي تسير عليه إدارة شئون البلاد، عندما سألوه عن رأيه فيما جرى لعبد المتجلي في المسجد على يد العمدة هز رأسه محوقلاً وقال:

ـ «هذا بيت الله.. وهو مكان للعبادة والإنابة..»

وحينما كان يجلس أمام بيته على أريكة خشبية، مغطاة بحصير صغير، جاءه أحد طلبة المدارس وسأله:

ـ «ألم يكن المسجد يا مولانا أيام السلف داراً للعبادة والقضاء والبيعة ومناقشة مشاكل المسلمين..».

شرد الشيخ ببصره إلى بعيد وتمتم:

ـ «كان... وكانوا».

لم يفهم الطالب ألغازه، وأدرك الإمام ذلك، فأخذ يشرح:

ـ «قال عبد الملك بن مروان على المنبر: ألا تنصفوننا يا معشر الرعية؟؟ تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر، ولم تسيروا في أنفسكم ولافينا سيرة رعية أبي بكر وعمر؟؟ أسأل الله أن يعين كلاً على كل...».

وصمت الشيخ برهة ثم قال:

ـ «الحلال بيّن والحرام بيّن».

هتف الفتى في ثورة:

ـ «لقد اختلط علينا الحلال بالحرام، والفساد الضارب يفسد الرؤية..».

أطرق الشيخ ولم يعلق، وعاد الفتى يقول:

ـ «أي قانون يمنع عبد المتجلي من إبداء رأيه؟؟».

وابتسم الشيخ وقال:

ـ «إن أهل القرية البسطاء المساكين لا تهمهم قضية الونش..».

ـ «والسرقة وباء تفشى في كل الأنحاء..»

ـ «فلنتحدث عن السرقة إذن».

ـ «كما نتحدث عنها من ألف عام؟؟ لا.. لا.. من الضروري أن نربطها بقضايا معاصرة.. كالونش مثلاً..».

قال الشيخ وهو يطوي الحصير مستأذناً:

«وأفوض أمري إلى الله، إن الله بصير بالعباد».

* * *

(٣)

لم يعد يتصور أن بالعاصمة رجالاً، فجاء من أعماق الريف حاملاً سيف الإرادة الخرافية ليبحث عن المفقود، ويفضح المستور، ويكشف عن وجه المدينة القبيح، وعينها العوراء، بعد أن يغسل الأصباغ والأهداب الصناعية، ويزيل الشعور المستعارة المستوردة.

كان يحمل تحت إبطه الأيسر ملفاً متسخاً فيه كل ما كتبته الصحافة عن الونش المفقود، منذ البداية إلى أن تم حفظ التحقيق بأمر النيابة، مر بتمثال «مصطفى كامل باشا»، وتوقف عنده طويلاً، إنه لا يؤمن بإقامة النصب والتماثيل والأزلام (هو لا يعرف معنى كلمة الأزلام)، لكنه يشعر أن هناك علاقة وطيدة قديمة بينه وبين مصطفى.. نعم مصطفى هكذا بدون إضافة ألقاب، فالإخوة الحميمة تسقط تلك الرسميات والشكليات.. قال له: «عبد المتجلي يقرؤك السلام يا مصطفى.. أنا وأنت غرباء في هذه الدنيا.. كما أني في مثل عمرك.. تشبثت بالخلافة في زمن الضباب والانهيار والضعف والهزيمة.. وسافرت إلى فرنسا بقصيدة عصماء تطلب منها أن تقف إلى جوار مصر حتى تتحرر من بريطانيا.. أنا مثلك أحمل

شمعة الأمل الواهنة في ليل داج عاصف.. غير أني لم أكتب الشعر.. ومت في شبابك مسموماً.. أو حسرةً.. لا أدري!! ويبدو أنني على الدرب أسير.. لم أذهب إلى باريس.. فالقرار هنا.. ولهذا سافرت إلى الداخل إلى المحروسة.. أم الدنيا.. القاهرة.. وأنا لا أفكر في النتائج، إن ما يهمني هو الحركة وقول الحق.. قالت لي أمي ما دمت متوكلاً على الله، فتذكر عند نزولك «المحروسة» أن تزور أهل البيت وتبلغهم عني السلام.. وهكذا يا مصطفى وجدتك في طريقي بالصدفة.. فخذ مني ومنها السلام.. ففيك من أهل البيت شيء من إيمان وتضحية وصبر ونور..».

في ضيافة الحسين كان يشعر بالابتراد بعد هجير الشوارع وغبارها الخانق، وضوضائها المربكة، توضأ وصلى، ثم شعر بالجوع، وجد يداً مجهولة تمتد إليه، وتسقط في حجره شيئاً، حاول أن يتفحص اللفافة فشم رائحة اللحم المشوي والأرز المتبل، جرى لعابه، وعاد يبحث عن اليد المجهولة، لكنها غرقت في الزحام.. «رزق ساقه الله إليك يا عبد المتجلي.. كُلْ، واهنأ واحمدْ ربَّك، وتأكد أن العناية الإلهية ترعاك»...

المحروسة ليست فساداً كلها، لكنها تطوي قلبها الحنون على الكثير من الخيرات والحنان.. لكن كيف

يضيع الونش على الرغم من ذلك؟ بعد أن أكل ذهب إلى الميضأة وشرب حتى ارتوى، وبعد الصلاة شعر بثقل رأسه، وارتخاء جفونه، فرقد على السجاد الأعجمي النظيف، وسقط في نوم كالغيبوبة.. هو لا يدري أطال به الوقت أم قصر، لكن يداً هزته، فتح عينيه كالحالم «من؟؟ ماذا؟؟» عندما أفاق تماماً رأى عينين تنظران إليه بحدة لا تتفق وطبيعة الجو الروحاني المشبع بالعطر السماوي، وجاءه الأمر واضحاً:

ـ «يمنع النوم منعاً باتاً في المسجد..».

فكر هنيهة ثم قال:

ـ «الكلام ممنوع.. والنوم ممنوع.. هل هذا بيت الله أم بيتكم؟».

رد الرجل في ضيق:

ـ «ليس المسجد وكالة بدون بوّاب».

هو يعرف أن «الوكالة» مصطلح يطلقه الفلاحون على المكان الذي توضع فيه الحمير بالمدينة، ومن عادة الفلاح الذي كان يسافر على حماره أن يدفع لصاحب الوكالة قرشين لإيواء حماره، ثم يعود بعد أن ينجز أعماله لأخذه ويرجع إلى القرية... آلمته كلمة «الوكالة» قال:

ـ «إحتشم يا رجل. . هذه إهانة؟؟».

جذبه من كتبه في غلظة وهدر:

ـ «إذا لم تلتزم أحضرت لك العسكري».

ـ «هل هم هنا أيضاً؟؟».

ـ «لحفظ النظام وتأديب أمثالك».

ـ «أنا جئت لغاية نبيلة. .».

ـ «للتسول طبعاً. . أنا أعرفكم. . ألا تستحي؟؟».

جمع أوراقه، وأمسك بحذائه، واستغفر الله، وخرج. . مدينة الملايين لا يعرفه فيها أحد، وهو بالتالي لا يعرف أحداً، يسمع عن موظفين من أبناء (الكَفْر) يعيشون في القاهرة، لكنهم قلما يأتون إليه إلا إذا مات قريب لهم من الدرجة الأولى، وغالباً ما لا يأتون. . أخذ يتفحص الوجوه. . لكأنه في جزيرة «واق الواق» التي يحدث الأطفال عنها، لا أحد يهتم بأحد، ولا يفشي واحد منهم السلام، والفتيات الجميلات يبتسمن بدون سبب واضح، والنظرات الوقحة تلاحقهم، وكلمات بذيئة تتطاير هنا وهناك، يصعب معرفة مصدرها، والسيارات تتسابق في جنون، وشرطي المرور يقف جامداً كالتمثال، وكأنه ينام واقفاً، وفي يده قلم وأوراق. . لا أحد يتكلم عن الونش إطلاقاً. . لم

يسمع هذه الكلمة منذ دخل القاهرة غازياً. . يبدو أن الناس قد نسوا المأساة. . معذورون. . فالمآسي يأخذ بعضها برقاب بعض. . والحيُّ أبقى من الميِّت. . إنهم يمرون على مصطفى كامل كل يوم، ولا يقرأ أحد عليه الفاتحة، أو يلقى السلام، أو يحفظ أبيات الشعر التي كتبها لفرنسا. . بل لم يعودوا يذكرون قوله المأثور: «لا حياة مع اليأس، ولا يأس مع الحياة. .».

وقعت عيناه على رجل طيب ملتح يلبس جلباباً أبيض:

ـ «أين يا سيدي الطريق إلى السيدة زينب؟».

ـ «سائق التاكسي سوف يأخذك إلى مسجدها. .».

ـ «وإذا سرت على الأقدام؟؟».

ـ «أصبت بضربة شمس. .».

ـ «لا تخف عليّ، فأنا تحت لهيب الشمس من قديم. .».

ومضى يحث الخطى إلى «أم العواجز» الطاهرة كما أوصته أمه، شعر بالتعب المضني وهو يحط رحاله قرب الضريح، الفرحة تتألق في روحه المكلومة، كان العرق يبلل ياقة قميصه البني اللون الذي لم يعرف الكواء في

تـاريخه الـطويل، وكـان يشعر أن مـلابسه الـداخلية مبتلة لزجة، لكم تمنى أن يستحم، ولم لا؟ أخذ يسأل عن دورة المياه، وصل إليها بعد مشقة، لكنها كانت مكتظة والناس في داخلها يتأخرون كثيراً، همس الحارس في أذنه، وفهم أنـه سوف يجـد المرحـاض على الفـور إذا دفـع خمسـة قروش.. لا بأس فإنه لم يعد يحتمل، حتى قضاء الحاجة أصبح له ثمن، وأين؟ في أقدس الأمكنة، المهم أن أمنيته تحققت ودخل، وتخفف مما يكرب بطنه، ثم خلع ملابسه، وأخذ يصب الماء صباً، ليس معه صابون، لا بأس، جاءه صوت الحارس غاضباً:

ــ «يا للمصيبة!! ماذا تفعل؟».

ــ «استحم...».

ــ «هل هذا وقته؟ لم نتفق على ذلك..».

وأخذت الدقات على باب المرحاض تتوالى، لكنه لم يكتـرث، حاول أن ينهي العمليـة بسرعـة، وعند خـروجه أمسك الحارس بخناقه قائلاً: «إدفع عشرة قروش وإلا..».

معنى ذلـك أن النقود التي معـه لن تكفي إلا لفتـرة قصيرة... وقد تنفد في قضاء الحاجة والاستحمام.. «هذه المحروسة كل شيء فيها يباع ويشترى، ولا مكان للفقراء إلا العمل أو السرقة.. أيمكن أن يكون ذلك هو سبب سرقة

الونش؟».

أضاءت في رأسه فكرة، قال للحارس:

ـ «ألا تعرف لي مكاناً آوي إليه لبضعة أيام؟؟».

ـ «العشرة قروش أولاً..».

أخذها الرجل وقال بصوت عالٍ:

ـ «مدد يا أم العواجز...»، ثم استطرد بصوت خفيض:

ـ «هل معك بطاقة شخصية؟؟

ـ «بالتأكيد.. وكيف أؤدي واجبي الإنساني بدونها؟».

على سطح البيت العتيق الذي بني من أيام المماليك. وجد ضالته المنشودة فكانت خيراً وبركة عليه. فالحارس أتاح له فرصة ذهبية بافتراش الأرض، والتحاف السماء، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن الحارس كان يأتي إليه كل يوم، ويغدق عليه خليطاً من الخيرات التي يتصدق بها زوّار المسجد... خبزاً.. وكعكاً.. وحلوى.. وفاكهة.. ولحوماً وأرزاً أحياناً.. «لشد ما حيرتني أيتها المحروسة!! لك ألف وجه ووجه.. وفيك كل التناقضات.. إن في أزقتك الرطبة القديمة ما يرد الروح، ويجلو صدأ القلب، ويعيد الثقة إلى النفس.. أيتها

المتقلبة.. الحانية القاسية.. الجميلة القبيحة.. المقبلة المدبرة.. يوماً ما سأجد المفتاح الذي يفض مغاليق قلبك أيتها اللعوب..».

* * *

وأخيراً ذهب إلى المكان الذي سرق منه الونش، وقاسه بنظراته، يريد أن يرسم خريطة دقيقة للموقع كما يفعل رجال التحقيق والمباحث عادة، لكن المكان يموج بالحركة والضجيج، وهناك أوناش جديدة تعمل بجد واجتهاد، وفي طرف الميدان وجد «كشكاً» صغيراً لبيع السجائر والبسكويت والحلوى، تقف به امرأة ممتلئة، عليها مسحة من وسامة، يبدو أنها في العقد الرابع من عمرها.. حث الخطى نحوها، وطلب زجاجة مياه غازية، أخذ يشرب «الكولا» الباردة بقدر كبير من التلذذ، ونظراته تمسح المكان للمرة العاشرة، ثم يعود ليخطف نظرة على البائعة..

فجأة، صك سمعه صوتها:

ـ «من أي داهية أتيت؟».

ـ «الغربية..».

ـ «تعنى فلاح..».

ـ «لماذا التجريح؟».

ـ «أحب الصراحة.. هل تضايقت؟».

ـ «أعرف أنك تمزجين..».

إبتسمت، ارتاح قلبه، بشرى خير، لقد دعت له أمه بأن يوفقه الله، ويفتح له القلوب والأبواب المغلقة، وهو لم يخرج إلا جهاداً في سبيل الله، البحث عن الونش قضية إنسانية وقومية ووطنية، بل ودينية في المقام الأول.

ـ «موظف».

ـ «نعم، في مجلس القرية.. أتقاضى مرتباً بدون عمل».

قالت في استنكار:

«تكية!! ونحن هنا نطفح الدم.. ندفع للعسكري.. والبلدية ومديرية الإسكان بالإضافة إلى تحرير المخالفات والمحاضر. تمنيت أن أهاجر..».

ـ «إلى أين؟؟».

ـ «في أي داهية..».

وتوافد الزبائن، إنشغلت عنه، هي تعد الشاي أيضاً لبعض العاملين في «مترو الأنفاق»، ولديها أنواع من الجبن الإفرنجي المغلف بالورق المفضض والمذهب، وخبز إفرنجي أيضاً، وعاد يتفحص المكان، جاءه صوتها:

ـ «أما زلت هنا؟؟ توكَّل على الله».

ـ «وأين أذهب؟؟ إن عملي الأساسي هنا».

نظرت إليه في دهشة، أي عمل لكاتب في قرية نائية هنا؟ ظننت أنه بدأ يلعب بذيله شأنه شأن الكثيرين الذين يداهمونها كأسراب الذباب، سددت إليه نظرات محذرة:

ـ «إسمع . .».

ـ «لا تسيئي بي الظن، فأنا رجل أبحث عن الحقيقة».

ـ «الحقيقة !!! سلم لي على الحقيقة».

ـ «أقسم لك، أريد أن أعرف من سرق الونش. .».

فتحت الباب الجانبي «للكشك»، واقتربت منه:

ـ «مخبر تحريات؟؟».

ـ «أبداً والله . .».

إستطاع بعد جهد جهيد أن يقنعها بما اعتزمه، كانت قناعتها على مضض. فقد شابها بعض الشكوك، ولم يشفع له إلا كونه فلاحاً ساذجاً، تستهويه حكايات الأطفال والأساطير.

ـ «إسمك عبد المتجلي. . أهلًا سي عبد المتجلي . . تترك الجنة، ثم تأتي إلى «المحروسة» يا محروس لتلقى

بنفسك في الجحيم؟».

كانت طفلة صغيرة تنام على «كليم» مهترىء بجوار المحل، واستيقظت فجأة تبكي، فهرولت إليها البائعة تضمها إلى صدرها، وتربت على راسها في حنان، وتناولها شطيرة معبأة بالطعمية.. عمرها ثلاث سنوات. إسمها «صابرين»، مات أبوها في حادث وهو يدفع عربة اليد الممتلئة بالخضراوات..».

عرف من «أم صابرين» أنها رأت الونش لآخر مرة في الساعة العاشرة من مساء ذلك اليوم المشهود، كان يقف إلى جواره رجل عملاق ضخم الجثة يرتدي جلباباً شعبياً، ومعه ولد ميكانيكي لا يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، ملابسه ملطخة بالشحم الأسود، ووجهه كذلك، عادت في صباح اليوم التالي، فلم تجد الونش، ولكنها وجدت حشداً من الناس والسيارات وآلات التصوير، أم صابرين تعتقد أن هذا اليوم كان يوم عيد بالنسبة لها، فقد باعت كميات هائلة من علب السجائر والمشروبات الغازية والشاي الطازج والمأكولات، وكانت تدعو الله من كل قلبها أن يسرق اللصوص كل يوم «ونشاً».

قال عبد المتجلي وهو يمعن التفكير:

ــ «أتعتقدين أن الرجل كان مخبراً؟؟»:

ـ «هكذا تدل هيئته وحركاته.. أنا أعرفهم..».

ـ «إن بعض الظن إثم..».

وذهب «عبد المتجلي» إلى القسم الذي باشر التحقيق في البداية، واستطاع أن يدفع مبلغاً لحضرة الصول كي يطلعه على التحقيقات الأولية، أقوال السائق الخاص بالونش، وزملائه والمهندس المسئول، وأقوال بعض من تصادف مرورهم بالمنطقة وتطوعوا للشهادة، بل وجد أقوالاً لأم صابرين أيضاً، ولشرطي الليل المكلف بالحراسة، والخفراء، إن الأمر لا يختلف كثيراً عما نشرته الصحف، بل إن لديه ثبتاً بالنكت والرسوم (الكاريكوتيرية) التي رسمها عمالقة ذلك الفن عند حادثة الونش المسروق، إلى أن حفظ التحقيق، وأوعزت السلطة للرسامين كي يتجاهلوا هذه القضية برمتها، هذا شيء لم يخبره به أحد، لكنه شائع ومعروف أو متواتر حسبما يقول الشيخ الطوخي إمام المسجد.. إن عبد المتجلي يجد نفسه تائهاً في غابة مليئة بالأشجار الضخمة والأشواك والحيوانات الضارية، غابة مظلمة برغم سطوع الشمس الحارقة، التي تخترق أشعتها الرؤوس والأجساد وتجعل أسفلت الشوارع كالجمر المتقد...

كان مستلقياً على ظهره فوق سطح البيت المملوكي العتيق الذي بني منذ مئات السنين، وكان يستعيد السطور

التي قرأها في ملف التحقيق بالشرطة، باحثاً عن ثغرة ينفذ منها إلى دنيا الحقيقة، ها هي «المحروسة» تتحول مرة أخرى إلى لغز محير يستعصي على أكبر العقول، لكن المجرم دائماً يترك أثراً ما في مكان ما.

تذكر الذاكرين من عشاق «الحسين» وهم يترنمون بالأماديح النبوية، والابتهالات الزكية، ويتطلعون بأرواحهم إلى الآفاق العليا الطاهرة فراراً من دنس الأرض، وقذارة الواقع المرير ووجد نفسه يغني مثلهم:

أنا رايح للحسين
أشكي له بلوتين
آه.. وأقول له يا حسين
ياللي جدك النبي
ياللي جدك النبي.. النبي.. النبي

وجاءه صوت في الظلمة يعرفه:

ـ «عليه الصلاة والسلام..».

ـ «هل جئت يا بيومي».

ـ «منها وإليها...».

ـ «معك طعام..».

ـ «وجبة شهية.. طعمية وبصل وطماطم وأجبان

مختلفة وأقراص صنعت من القمح، وعجنت باللبن..».

كان القمر يتألق في السماء الصافية، لم يكونا في حاجة إلى إضاءة المصباح الكهربائي، هذه العتمة - كما يعتقد عبد المتجلي - تريح الأعصاب المتوترة، إنها مهدىء بالمجان، ربما لو علمت السلطة بقيمتها لصنعت لها عدادات مثل عدادات النور.. الحمد لله.. وجلسا يأكلان، قال بيومي الرفاعي:

- «لماذا لم تتزوج؟؟».

قال عبد المتجلي ساخراً:

- «لم تتقدم حتى الآن أي من بنات الحلال لطلب يدي» وضحكا، فقال بيومي:

- «الرجل هو الذي يتقدم».

- «الأمر يختلف يا صاحبي إذا كان فقيراً.. الفقير يُطلب (بضم الياء) ولا يطلب (بفتحها).. يؤمر ولا يأمر.. أما الغني فإن ثقته بنفسه تدفعه لأن يتقدم.. آه عرفت الحب.. لم يزل عبيره الخالد يضوع في جنبات قلبي على الرغم من أنها ذهبت بعيداً مع من تزوجت..».

وتذكر عبد المتجلي شيئاً فقال:

- «وأنت لم تعيش وحدك؟».

حاول أن يراوغ فقال:

ـ «ما هي أخبار الونش؟؟».

ـ «السماء ملبدة بالغيوم، ورياح الخماسين تهب في عنف، وأنا كالريشة التي يُلعب بها..».

قهقه بيومي وهو يقول:

ـ «السارق معروف».

ـ «من؟؟».

قالها عبد المتجلي في لهفة.

رد صاحبه بعد أن أزدرد اللقمة الكبيرة:

ـ «حاميها حراميها».

ـ «إنك تقوي ذرائع الشك في نفسي».

ـ «إنهم يسرقون صندوق النذور..».

وأكمل عبد المتجلي:

ـ «في معظم الأمكنة، ويقدمون للمحاكمة، وفي النهاية يحصلون على البراءة.. أما أمثالنا فمدانون دائماً..».

رفع بيومي يديه عالياً وهتف:

ـ «يحيا العدل.. يحيا العدل..».

ثقلت بطن عبد المتجلي كما ثقلت رأسه، مدّد جسده الضامر على البلاط البارد، ووضع البقجة والحذاء تحت رأسه، وتمتم: «يجب أن ننام حتى نصلي الفجر في الجماعة الأولى، ثم إن لدي مقابلة هامة جداً في الغد، وعلى ضوئها سيتحدد موقفي نهائياً من قضية الونش..

* * *

ونام...

الوادي الأخضر تغطيه الزهور وعناقيد العنب والسنابل، الأطفال يمرحون ويرددون الأهازيج، لابسين الحلل الزاهية المطرزة بالجواهر الثمينة والذهب، تضيء ملامحهم بالسعادة.. وأنهار من عسل ولبن، والجارية التي تجلس تحت الشجرة الوارفة، متلفعة بشالها الحريري الأخضر، واضعة قدميها في ينبوع صغير من المسك تبتسم له.. تشير إليه بيدها الجميلة.. إنها هي.. بشحمها ولحمها وشعرها الأسمر المنسدل على الكتفين.. هي في انتظاره.. لم تتزوج.. كذب من قال إنها تزوجت.. عذراء قادمة من الجنة.. لم يطمثها إنس ولا جان...

قال لها: ـ «أنت؟».

قالت له: ـ «أنت؟».

جلسا يقطفان زهور الحُبّ والنشوة القدسية، نامت على صدره، تحرج حرجاً بالغاً: «لا بد أن نعقد القران أولاً، حتى تكون حياتنا حلالاً، وحبنا طاهراً مصفى...». قالت له: «هل نسيت؟ ها هو العقد.. دائماً تنيسى.. كلما انشغلت بأمر من أمور الدنيا، غرقت فيه، وغصت إلى القاع.. لقد أنساك الونش حبنا ورباطنا المقدس..».

هو في حيرة، ولا يستطيع أن يستوعب الموقف بصورة كاملة.. تمتم ﴿وما أنسانيه إلا الشيطان﴾، مسحت على جبينه الأسمر بيدها الناعمة الندية المعطرة، وتمتمت:

ـ «لا تحفل بالشيطان.. تجاهله، فيصغر ويتضاءل.. كلما ازددنا حباً، ازداد هلعاً وضموراً..». سألها عن بيتهما أشارت إلى كوخ أنيق شاهق البياض يتوسط الخضرة، خفق قلبه، سمع أنغاماً لناي بعيد.. وهويعشق الناي من قديم على الرغم مما فيه من أنات ونواح.. أحياناً يجد للحزن صدى وارتياحاً في نفسه.. الحزين السعيد.. يبدو أن السعادة لا تتحقق إلا إذا خالطها قدر ولو قليل من الحزن.. إنه ملح السعادة.. قال لها: «إني ظامىء». قالت: «سأسقيك ماء عيني» سلمت عيونك يا حورية.. لك روحي وحياتي وكل ما أملك، وإن كنت لا أملك مالاً.. تقولين إن قلبي أغلى كنوز الدنيا، إذن فأنت مني وأنا منك.. لقد تمازجنا إذن.. وأصبحنا كياناً واحداً.. أتسمعين الناي.. نعم هي

تسمعه، وأرى التأثر بادياً على وجهها الجميل.. يكفي أن أنظر.. وأنظر.. حيث لا زمان.. مقاييس السعادة من نوع آخر.. وهيا نذهب إلى بيتنا الجميل..».

أذن الفجر، أفاق عبد المتجلي على وكزة من بيومي، فتح عينيه فوجد السماء والقمر الغارب، والسطح الأجرب.. وتمتم:

ـ «سامحك الله يا بيومي.. ليتك تركتني حتى قيام الساعة..»

(٤)

سرواله الأزرق أصبح بلون الطريق المتسخ الذي لا تعيره البلدية اهتماماً وحذاؤه البني اللون في الأصل أصبح طينياً، عفن الرائحة، وتوشك قدرة احتماله أن تنهار، إن ترميمه وتلميعه يحتاج إلى مال ووقت. وحتى لحيته أصبحت عبئاً. إن الحلاق اشترط عليه دفع المبلغ أولاً، جنيه كامل، وهو الذي كان يستمتع بحق الحلاقة في القرية بنصف كيلة قمح سنوياً، وفي الأعياد فقط يدفع نصف ريال، عيب القاهرة الكبير أنها لا ترحم في الأسعار، وقلوب أهل الحرف كافرة بالمجاملات والصدقات. والصحف ليس فيها إلا الأماني والأحلام، والصور والأرقام، والخطط الخمسية والعشرية وبرامج التخطيط والتغني بحلاوة المستقبل.. لطالما عاش في المستقبل من قبل، وحلم به، وها هو الماضي والحاضر يذهبان.. كانا مستقبلاً في فترة من الفترات، ثم ماتا.. لكن المستقبل يولد كل يوم... والذي حلمنا به لم يولد بعد.. لشد ما يخاف أن يموت ذلك الغد ـ الأمل قبل أن يولد..

قضى عبد المتجلي أسبوعاً كاملاً يبحث ويحقق ويدقق، علم من أم صابرين أن سائق الونش المفقود

الأسطى حنفي كان صديقاً للمرحوم زوجها، وأنهما كـان يسهران كل مساء حول «الجوزة» لتدخين الحشيش «اللعنة على الحشيش وأيامه، كان يعود مهلهلاً مسطولاً، ضحكه كالبكاء، ونومه أرق، ومزاحه طفولي، وكان يخرج إلى عمله، ويدفع أمامه عربته المثقلة بالخضراوات، ويغني كالسكارى.. يتحرك وهو نصف غائب عن الوعي، يخطىء في عدد النقود والوزن، ابتسامة عابثة من امرأة ماكرة تجعله ينسى ثمن البضاعة... لم يكن يشعر بأدنى حرج أو تأنيب للضمير، على الرغم من أنني كنت أسلقه بألسنة حداد، كان يكتفي بتهديدي بالطلاق، وأخيراً نفذ تهديده. طلقني إلى الأبد حين مات.. رأيته يرقد أمام العربة ملوثاً بالدماء، معفراً بتراب الطريق.. شاحباً هائماً في ملكوت لا أعرفه.. تدفق شلال الحزن الهادر في قلبي... بدا أمامي مسكيناً مظلوماً.. ضحية.. بكيت وبكيت.. أدركت لحظتها أنني كنت أحبه.. وأنني محتاجة إليه بشدة.. لكنه رحل وترك لي صابرين»... كانت تجفف دموعها.. وتستقبل الزبائن.. وتتكلم.. وتنوح.. وتعطي للطفلة طعاماً.. وتفرز النقود، تعودت أن تتعامل مع الواقع والحزن والدموع والناس بدون أن تضيع وقتها سدى، لكن

عبد المتجلي برغم الصدع الذي أصاب قلبه من أجلها اهتم بحكاية السائق، وأخذ يعد ملفاً له، ثم طلب منها أن

تعرفه به، وأصبح السائق وعبد المتجلي صديقين.. وخلال ثلاثة أيام أو أربعة، كانا يتساقيان الشاي، ويمزحان، ويتبادلان النكت.. آخر نكتة.. أغلب النكت عن الحشيش والحكومة.. وفوجىء عبد المتجلي بالسائق يدعوه لسهرة معهم كي ينسوا الدنيا وما فيها من أمور محزنة تغم النفس، وتسمم البدن على حد قوله.

قال عبد المتجلي: «لكني لم أدخن الحشيش، ولا حتى السجائر أبداً.. إنه رجز من عمل الشيطان» فأفهمه «الأسطى حنفي» أنهم لن يرغموه على ذلك، ويكفي أن يجلس معهم فتنتقل إليه عدوى «الانبساط الفيروسي»، وعندئذ سيضحك أكثر مما يضحكون، ويسعد كما لم يسعد من قبل، ثم إنه لن يخسر شيئاً، إن لم يستفد وجبة دسمة لعلها تكون الكفتة والكباب، فالحشاشون قوم كرماء، ولديهم حصانة قوية ضد أوجاع الهم والغم والكولستيرول والأفكار السوداء. تفكر عبد المتجلي قليلاً:

ــ «ألا تخافون أن يداهمكم العسكر؟».

ضحك الأسطى حنفي المتولي ضحكات قصيرة متتابعة وقال:

ــ «إنهم منا».

ــ «كيف؟؟».

- «بعضهم يشاركنا الجلسة.. ألسنا القاعدة الشعبية؟».

- «لهذه الدرجة؟».

- «بل هم من مباحث المخدرات نفسها».

- «يا للمصيبة!!».

- «يا بني.. أولاد مزاج.. لو كنت ممن بيده السلطة لخصصت دعماً أو على الأقل علاوة للمساكين مثلنا..».

ووجد عبد المتجلي نفسه منجذباً إلى الذهاب، إنه لن يصل إلى الحقيقة إلا من خلال المعاناة والمخاطرة، وماذا يهم إذا كان واثقاً من نفسه، متمكناً من توجيه إرادته وسلوكه الوجهة التي يريد، وفي سبيل الونش، ومعرفة السر يهون كل شيء بعد ذلك، حضرة العمدة الحاج إبراهيم كان يردد دائماً تلك المقولة التي حفظناها ونحن ندرس تاريخ أوربّا «الغاية تبرر الوسيلة».

صلّى العشاء في مسجد السيدة زينب، ولم ينسَ ركعتي السنة، وصلاة الشفع والوتر وختم الصلاة، واستأذن بيومي وذهب إلى كهف صغير في زقاق من أزقة القلعة، وحينما جلس وسط الحلقة لم يثر اهتماماً يذكر بعد أن رحبوا به، وقدموا له التحيات، سرعان ما أصبح واحداً

منهم، بدون إجراءات أو طقوس خاصة، إنهم هنا يحتقرون الروتين والبيرقراطية، ولا يعبأون بشيء.. شجاعة تفوق كل تصور، لكنها تمتزج بالاستهتار أو عدم المبالاة.. لا خوف من شيء، التفكير في الغد ـ على ضوء الواقع ـ مأساة لا يطيقون الخوض فيها بجدية، يسدلون أستاراً ضبابية أرجوانية تحجب عنهم كوابيس المستقبل.. ويتغنون مع أم كلثوم:

غد بظهر الغيب واليوم لي
وكم يخيب الظن في المقبل
ولست بالغافل حتى أرى
جمال دنياي ولا أجتلي..

«أم كلثوم» كانت ـ وما زالت ـ هي المتحدث الرسمي بأشواق الجماهير وأحزانها، حتى ولو غنت «ريَّان يا فجل»، وهم يطربون لأغانيها عن الحب والعذاب والهجران، كما يطربون لمدائحها الحلوة في مديح المصطفى ﷺ، ويستمعون أيضاً في طرب لأغانيها الوطنية الرسمية لأنهم ـ مهما كان الأمر ـ يحبون أرضهم وشعبهم..

إنعقدت السحب الزرقاء، وتوالت على المسرح أشباح البهجة بأردية فضفاضة حريرية.. زرقاء.. وحمراء.. وصفراء، وفجأة قال الأسطى حنفي سائق الونش:

ـ «أخوكم الأستاذ عبد المتجلي قدم من بلد صغير على شمال السماء يبحث عن الونش المفقود..».

وانفجرت الضحكات، وعلت القهقهات، وبعد فترة ذهول قصيرة وجد عبد المتجلي نفسه يشاركهم المرح الجنوني، وقال الرجل الذي «يرص» الحشيش والمعسّل:

ـ «أبينك وبين الفقيد صلة رحم».

وصهلت الخيول مرة أخرى، حتى فاضت الدموع، وانهمر العرق، ووجد عبد المتجلي نفسه يندمج في الجو، وحاول أن يرد:

ـ «نعم.. فأنا خريج الصنايع.. متخصص في البرادة.. أنا والونش أخوان تربط بيننا أواصر التكنولوجيا..

وتناثر الرذاذ والسعال عبر الموجة الثالثة من الضحك القاتل، ثم قال عمدة الجلسة:

ـ «علينا الحرام جميعاً يا رجال أن عبد المتجلي ابن مزاج قراري».

حاول أن يدفع عن نفسه التهمة، فضاع صوته في خضم الصخب العاصف، وانتهز فرصة صمت صغيرة وقال:

ـ «اسمحوا لي بكلمة بسيطة.. إسرائيل هي التي

تصدر إلينا الحشيش لتهلكنا.. هل تعرفون؟؟».

رد العمدة الرئيس:

ـ «ومن الذي كان يصدره قبل أن توجد يا عبد المتجلي بك؟».

ـ «الإنجليز».

ـ «يقول العلماء إنه موجود حتى قبل العثمانلي».

وأدلى الأسطى حنفي بدلوه في المناقشة فقال:

ـ «الحشيش هو الانفتاح.. أكبر دول في العالم مدمنون.. أمريكا.. أوربا.. أستراليا..».

قاطعه المعلم الكبير:

ـ «أنت تذكرني بالعجل الأسترالي».

وضج الكهف بالضحك، وهب الأسطى حنفي من مكانه، ومضى صوب المعلم، ثم احتضن رأسه الصلعاء بين راحتيه، وأخذ يقبلها بحرارة ويقول:

ـ «وشرفي أنت عسل... أكبر فيلسوف عرفته في حياتي» ثم التفت إلى عبد المتجلي قائلاً:

ـ «هذه تجربة بالذخيرة الحية.. ألا ترى ما يفعله الحشيش في تنوير الأمخاخ؟».

وأكلوا حتى الثمالة، وأكل معهم عبد المتجلي قليلاً، ومر نصف الليل بدون أن يشعروا، تثاءبوا.. وحَلوا أجسادهم دونما اتفاق مسبق، وسكنت الجمرات وأسودت كالليل الناعس في الخارج، وتسللوا من دهليز باهت الضوء، صامت كالقبر. كان الأسطى حنفي يمشي مترنحاً، وإلى جواره عبد المتجلي يسنده، وعيناه تجوبان العالم النائم.. وبعد فترة من المشي الرتيب سأله عن الونش، أجاب حنفي: «لقد قلت كل ما عندي أثناء التحقيق.. انتهت ورديتي وأتيت بيتي، ثم التحقت بالأصدقاء القدامى في مجلسنا المعهود الذي تركناه منذ دقائق طويلة.. طويلة.. كهذا الطريق الطويل.. عرفت الخبر من أفواه الناس.. ليس لي رأي شخصي في هذه القضية.. تعلم يا عبد المتجلي أن الآراء الشخصية لا قيمة لها في مثل هذه القضايا.. العصابات تملأ البلد، ولكل عصابة منطقة نفوذ، الحكومة تعلم ذلك.. وبلاغات سرقات السيارات في كل مركز شرطة.. إنهم يختطفون السلاسل الذهبية والأقراط في عرض الطريق.. ويسرقون الأعراض مع سبق الإصرار والترصد.. ضاع الإيمان فضاع الأمان.. لو قطعوا يد السارق لتحول ربع السكان إلى ذوي عاهات ولاحتاجوا إلى إعانات أجنبية.. سواء سرقوا الونش أو البيضة فهي سرقة.. ثم ما الذي يجعلك تهتم بحادث الونش إلى هذه

الدرجة؟؟».

لم يعلق عبد المتجلي، فهو مدرك أن صاحبه مخدر على الرغم مما يقوله من كلام يبدو معقولاً، وأخيراً قال له الأسطى حنفي: «إن المباحث لم تهتم بالأمر كما يجب».

قال عبد المتجلي في لهفة:

ـ «كيف؟؟».

ـ «كان يجب أن تداهم الورش».

ـ «لماذا؟؟».

ـ «الونش لا يمكن إخفاؤه إلا في ورشة.. وأنت براد قديم وتعرف».

ـ «الورش لا تعد ولا تحصى».

ـ «الكبيرة منها هي المكان المناسب».

ـ «لماذا؟؟»..

ـ «لها القدرة السريعة على فك الأجزاء، وصهر الحديد، وتضييع معالم أي آلة أو مركبة..».

ـ «لكن هذا يحتاج لجيش من الفنيين والمخبرين».

ـ «إذا أرادوا الكشف عن السر..».

تجشأ الأسطى حنفي واضعاً قبضته الملوثة بالشحم أمام فمه، ثم قال:

ـ «كل شركة لها رأس كبيرة تحميها أو رؤوس. .».

ـ «حتى الورش؟؟».

ـ «ولم لا؟؟ حماية رأس المال والنشاط حاجة أساسية».

خيل إلى عبد المتجلي أن قضية الونش المفقود أعوص من قضية الشرق الأوسط، بل ربما لو أمكننا حل القضايا اليومية كقضية الونش وغيرها لأصبح من الميسور أن نشكم إسرائيل بل وأمريكا نفسها. .

حينما ألقى بجسده على السطح تحت السماء الصافية، شعر بما يشبه الأزيز في رأسه، يخيل إليه أن الدخان الذي ملأ الغرفة الصغيرة قد نفذ من خياشيمه وهو معهم، فاستنشق على الرغم منه كميات من الحشيش المحترق، إنه حشاش سلبي، كالمدخن السلبي تماماً ذلك الذي يجلس مع المدخنين في أماكن مغلقة، فيصيبه من النيكوتين والقار نصيب، بل قيل إن بعض الأطفال الرضع ماتوا بسبب ذلك. . . ليته ما ذهب. . لكنها تجربة على أي حال، ونام نوماً ثقيلاً، فشلت كل محاولات بيومي لإيقاظه كي يصلي الفجر. . ظل سارداً في أحلام كثيرة متشابكة،

تختلط فيها صورة الونش بأمه وأخته بدرية وحضرة العمدة والشيخ الطوخي وأم صابرين ومحفل الحشاشين ومجاذيب السيدة، وصاحبة الجنة الخضراء التي مرت من أمامه هذه الليلة كطيف عابر، يبدو أنهـا لم تعجبها مـظاهر الـزحام والضجيج التي عكرت أحلامه ووشحتها بالأبخرة الزرقاء.

قـرر أن يظل حبيس السـطح اليوم ليغسـل ملابسـه، وينظف حذاءه، ويقـرأ في بعض الكتب، ويفحص ملف الونش كي يلخص ما توصل إليـه من معلومات في نقـاط محددة واضحة وبصراحة تـامة، فهـو للأسف لم يمسـك بخيط واحد يؤدي إلى ما يمكن أن يعتبر بداية صحيحة.. نعم للأسف..

إنه يمشي كل يوم في المنطقة المشبوهـة، رأى ونشاً أحمر يقف إلى جانب الطريق، نظر إليه في ود، شرد ببصره إلى بعيد «تصوروا.. الونش يحييني.. إنني أفهم لغته.. يكـاد يمد أذرعـه ليحتضنني، هذا الحـديد.. الجمـاد له قلب» لمس الـونش في عشق.. أودعه قبلة حـانيـة الأوناش لا تعرف النفاق إني سائلك أيها الونش الحبيب: «من سرق أخاك؟ لو نطقت لكفيتني ألم السؤال، وعذاب الحيـرة.. البشر يكـذبـون، وأنت المسخـر لخيـر النـاس سرقوك..».

وفي رحاب أم صابرين جلس متوتراً، لقد رآه أصحاب الونش فنهروه وطردوه، وحسبوه لصاً من لصوص الأوناش وإلا لماذا يتحسسه ويتفحصه بدقة ويلتصق به في صورة تدعو إلى الشك، ولم يترك الونش إلا بعد أن هددوه بإبلاغ الشرطة.. عجباً.. يتركون اللص، ويسيئون معاملة المسروقين.. أوضاع مقلوبة..

شرب الشاي من يديها الحانيتين وهو يزدرد (صاندوتشاً) من الفول، أصبح جلوسه عند أم صابرين أمراً مألوفاً، إنها امرأة طيبة مكافحة صامدة، تشفق عليه وتواسيه، وكثيراً ما ترفض أخذ ثمن الشاي، وهو يداعب الصغيرة صابرين، إنها تحيي في قلبه مشاعر أبوة لم يتمرس بها بعد..

سألته باسمة عن أخبار الونش، قال في ضيق:

ــ «لم يزدني سائقه إلا حيرة..».

ــ «وستظل هكذا حتى تقلع».

ــ «وكيف؟؟».

أخذت تحدثه عن دهشتها لما يفعل، ولولا أنها أصبحت تعرفه جيداً لجزمت بأنه مجنون، هي تعرف أناساً كثيرين لهم هوايات عجيبة، واهتمامات في منتهى الشذوذ،

تشهد ذلك من خلال تعاملها اليومي مع الناس، لكن قدومه من الريف بهدف البحث عن ونش لا صلة له به، لا يمكن أن تجد لها تفسيراً معقولاً، وفي القرية يسرقون البهائم والحمير والمحاصيل والأموال، أما أجدر به أن يوجه طاقته محلياً بدلاً من أن يستنزفها هنا بحثاً عن ونش تمتلكه شركة كبيرة ومؤمن عليه؟

تضايق الأسطى حنفي عندما جاء ليشتري سجائره وسمع عبد المتجلي يوجه إليه للمرة المائة سؤالاً عن الونش وقال:

ـ «أي ونش تقصد؟؟ لقد سرقوا ونشاً آخر.. هل هو تحقيق؟؟ أنا لست مسئولاً يا عبد المتجلي عن أوناش البلد، فليذهب الجميع إلى الجحيم.. الفاضي يعمل قاضي.. إذا أردت أن نظل أصدقاء فلا تحدثني عن الونش مرة أخرى.. اللعنة على كل أوناش البلد وسياراتها ودراجاتها وعلى القطاع العام والخاص.. والـ..».

وتدخلت أم صابرين كي تخفف من حدة الموقف، وأهدت حنفي زجاجة من الكولا الباردة حتى يهدىء أعصابه الثائرة، وقالت وهي توجه الحديث إلى عبد المتجلي:

ـ «لا تغضب.. قلب حنفي أبيض.. وهو يحبك».

واعتدل المزاج، وعادوا جميعاً يتحدثون في أخوة

ولطف، لكن عبد المتجلي كان يشرد من آن لآخر، يواسي نفسه خفية، إن العقبات دائماً تعترض طريق المخلصين والمصلحين، وعليهم أن يصبروا ويتحملوا، هكذا تعلم في المدارس، كما قرأ أيضاً عن قادة الفكر وزعماء الإصلاح وقادة الجيوش الكبار، وعايش معاناتهم وتضحياتهم، فالتغيير له ثمن غالٍ، والحقيقة كالعروس الحسيبة النسيبة، الجميلة الثرية، لا بد وأن نبذل من أجلها كل ما نملك. . الناس ـ في عمومهم ـ جهلاء، هكذا يؤمن عبد المتجلي، وليس في الإمكان محو أميتهم وجهلهم بين يوم وليلة، ولا بالطريقة التي تتبعها الحكومة في محو الأمية. . إن إعداد الشعب للقرن الحادي والعشرين يحتاج إلى عقول جبارة، وإرادة نافذة كإرادة الأوناش، الونش دائماً يتقدم. . ويعمل ما دام يمتلك الطاقة والقيادة الواعية. . بطيء الحركة، لكن ضربته لا تخطىء، حقيقة يجعجع، لكن فعله أقوى وأعلى من صوته، ثم إنه ينكر ذاته، ويستسلم كطفل وديع، يسمع ويطيع، لا يتمرد أو يثور، عرف الونش طريقه فشعر بالسعادة، فأصبح كالعابد في محراب العمل، حتى اللص عندما قرر أن يسرقه، سار معه هادئاً واثقاً، إنه مؤمن تمام الإيمان بأهمية دوره في أي موقع. . لذلك أحببت الونش. . وسأبحث عنه ما حييت. . وسأدافع عنه حتى آخر قطرة من دمي. . لن أكترث بكلام الخلق، فهم يفعلون

الموبقات، ويظهرون شرفاء أبرياء في ملابسهم الأنيقة، وعباراتهم المنمقة، وابتساماتهم الزجاجية الباردة. . إن تحرير الونش، وإعادته لأصحابه، واستخدامه في الخير، قضية مقدسة.

عبد المتجلي يفكر حالياً في المرور على الورش الكبيرة، فهو يعرف مواصفات الونش المفقود، وقد يعثر على دليل ما في هذه المزارع الصناعية الصغيرة، وفيها الكثيرون من الأطفال، كل واحد منهم اسمه بلية أو صامولة أو. . إنها أسماء حركية مميزة، تقرب الإنسان من عالم الجماد، أو بمعنى آخر هي اندماج في عالم التكنولوجيا. . حتى تصبح هي والآدميون كياناً واحداً. .

إستيقظ من أحلامه على ضحكة أم صابرين التي أخذت تعتب عليه لشروده الطويل، وذكرته بقريته وأهله، وتعجبت كيف لم يرسل إليهم حتى الآن ولو خطاباً واحداً للاطمئنان، وكانت لها وجهة نظر ظريفة، وهي أن الحل الأمثل لمشكلة الونش، أن يعود إلى القرية ويبحث عنه هناك (كانت تضحك وتغمز) لعله أثناء بحثه يعثر على بنت الحلال التي تصلح زوجة له، فتشاركه البحث عن الونش، وبالتأكيد سيصلان معاً إلى نوع من النجاح، وتحقيق الآمال. . وأكدت له بصراحة أن ما يعاني منه نوع من الحمى والعلاج هو الزواج. . هز رأسه مفكراً. . إنه يسمع

هذا الرأي كثيراً، لكن كيف يسعد بالزواج وهـو أبعد مـا يكون عن الحقيقة، وعبر عن ذلك المعنى لأم صابرين التي بادرت بالقول:

ـ «الحقيقـة المؤكدة هي أننـا نتزوج وننجب أطفـالاً ونشقى ونعيش.. ونأكل..».

قال في حماسة بادية:

ـ «الإنسان يصنع التاريخ..».

ـ «لا تاريخ ولا جغرافيا.. دعك من هذا الكلام.. كلنـا على الهامش.. ومن يحـاول القفز تنكسـر رجله.. ورأسه أيضاً.. كن عاقلاً يا عبد المتجلي..».

المرأة تتحدث كفيلسوفة، وتعبر عن واقع المستضعفين والمكسورين والمحزونين، لقد تكيفت مع الزمن، ورضيت بالمرارة مذاقاً، قالوا إن المادة المرة تفتح الشهية كالأطعمة الحريفة تماماً، إنها إرادة الله..

أفاق من أحلامه على صدمة قوية حين قالت له:

ـ «أتتزوجني؟!».

دارت بـه الأرض، زاغت نـظراتـه، دق قلبـه دقـات متسارعة تكاد تخترق قفصه الصدري، فتح فمه كـالأبله، وقف كالتائه الذي لا يدري ماذا يفعل ولا أين يذهب، طأطأ

رأسه لهيئة الموقف المعقد، مرة أخرى حاول أن ينطق، فلم يطاوعه لسانه، إنحشرت الكلمات في حلقه، وفجأة قال:

ـ «موافق . . ».

(٥)

إستقبلوه في الـورش الخاصـة بالخـردة وقطع الغيـار وإصلاح السيارات بريبة، كـانوا يتعـاملون معه في خـوف وحذر، لم يصدقوا أنه مجرد ريفي بسيط، وكيف ذلك وهو يتحدث عن الأوناش واللحام وتقطيع الحديد وصهره وإعادة صبه في أشكال جديدة؟؟ ووصلوا إلى قناعة لا تتزعزع بأنه من رجال التحريـات التابعين للمبـاحث، وأنه ضليـع في قضايا سرقة السيارات والمركبات الميكانيكية بصفة عامة، ومنذ البداية لم يثقوا به، وبالتالي لم يجيبوا على استفساراته إجابات شافية، اللهم إلا بعض الصبية الذين كان ينفرد بهم خفية إذ قال له واحد منهم:

- «يمكن أن يعيدوا إليك السيارة المسروقة.. إذا لم تكن قد دخلت المشرحة».

ذهل.. ماذا تعني المشرحة في عالم الورش؟؟ لكل حرفة مصطلحاتها، بل لغتها الخاصـة، وشرح لـه الصبي اللغـز الذي حيـره، أفهمه أن السيـارة التي تسرق إذا مـا دخلت الورشة فسرعان ما يتجمع حولها الصبية ويفكونها قطعة قطعة، فتتحول بقدرة قادر إلى كومـة من المساميـر والصواميل والتروس والقضبان والـرقائق المعـدنية، وهـذه

القطع وغيرها تختلط بباقي الخـردة، وهكذا تضيـع معالم السيـارة تمامـاً وبالـطبع يـزيلون بعض العلامـات والأرقام والتواريخ المميزة للإنتاج عند الضرورة، وإن كانت خبرتهم الطويلة قادرة بعد ذلك على تمييز كل نوع عن الآخر، ومن هذا المنطلق فإن السيارة ـ أو المركبة أياً كان نـوعها ـ إذا دخلت «المشـرحـة» أصبحت في حيـز الفنـاء أو الضيـاع الأبدي . .

أصيب «عبـد المتجلي» بشعور جـارف من الانقبـاض والإحباط، إن الفساد المستشري لا يمسخ آدمية الإنسان، ويطمس معالمـه فحسب، بل يفعـل نفس الشيء في كل مخلوقـات الله الأخرى من جمـاد وحيوان ونبـات. «هؤلاء الأبالسة يغيرون خلق الله كُفْراً وجحوداً وطمعاً، لم يبق في الدنيا شيء قصرت عنه يد العدوان. . صـدق الله: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس﴾ . . في أي عصر نعيش؟؟ إنني أبحث عن إبرة في كومة هائلة من التبن كما كانت أمي تقـول. . ».

سأل عبد المتجلي الصبي «بلية» عن أي احتمال آخر يبقى الذبالة الضئيلة من الأمل، والتي تبدو كنقطة صغيرة مضيئة في ليل أسـود عريض طـويل. وفهم منـه أن هناك احتمالاً بأن يكون الشيء المسروق قد بيع خارج القاهرة بعـد تغيير اللون وإجـراء بعض «العمليـات الجـراحيـة»

التجميلية حتى يبدو وكأنه «شخصية جديدة» ظاهـرياً على الأقل، وما أكثـر السيارات والمـركبات التي صُـدِّرت إلى أعمـاق الصعيد، أو إلى المنـاطق الصحراويـة والسودان، وعبد المتجلي يعرف أن هناك منافذ شيطانية على الحدود لا تستطيع خفر السواحل أو سلاح الحدود حراستها ومراقبتها، ومنها تستورد الممنوعات والمخـدرات ومختلف الأسلحة، وينفـذ منهـا اللصـوص والهـاربـون من السجـون، وملوك الجـريمة في ليـالي الجبل الغـامض، وبعض السيـاسيين المطادرين. .

إبتسم عبد المتجلي في مرارة وتمتم: «مشكلة الونش إذن مشكلة عربية. . تماماً كقضية الشرق الأوسط كما سبق وتصورت، وتحتاج إلى جهود قومية مشتركة، واتفاقات ثنائية وجماعية، وعندما تصل المأساة لهذا الحد من الاتساع فقل «على الونشِ السلام». . وكيف يمكن أن يجد الإنسان المأزوم حلاً لمثل تلك المعضلة إذا كان لا يملك إلا ما يلبسه على جسده، وما يحتفظ به من قروش في جيبه المثقوب الذي تلاحقه أنامل اللصوص الماهرة؟؟».

إن فكرة مداهمة الورش بهدف أخذ عينات من الحدايد وتحليلهـا ومطابقتهـا لمواصفـات الـونش المسـروق فكـرة ساذجة، ولا يمكن إثباتها من الناحية العمليـة والقانـونية، وتاجر الخردة يشتري كل شيء، ومن أي مكان، ولا يسأله

أحد عن شهادة تثبت المصدر أو تاريخ الصنع، ومن ثم إذا ثبت أن الونش قد دخل المشرحة، فستكون القضية قد انتهت، أما إذا ظل احتمال إخفائه لبيعه في الوقت المناسب قائماً، فإن الجهد يجب أن ينصبّ على البحث عن المخبإ، ومن البديهي أن المخبأ لا بد وأن يكون متسعاً بعض الشيء حتى يستوعب هذا الكائن الضخم، وأسوأ ما في الونش أنه صامت لا يتكلم أو يعبر عن ذاته وهمومه إلا إذا سرت الحيوية في محركه، وسرى البترول في شرايينه، عندئذ يزأر كالأسد، وينفث عن قلبه أبخرة الزفير الذي طال احتباسه، ثم يمد ذراعيه العملاقين ليحتضن الأشياء، ويعلو ويهبط بها، كأنه فارس فارع الطول يلهو بطفل صغير في خفة ورشاقة..

البحث عن المخابىء يحتاج لمزيد من الوقت والجهد والمال، وقد كادت موارده بعد مرور ثلاثة أسابيع تنضب، والإجازة الرسمية على وشك الانتهاء، والأمور تتعقد وتتشعب، ومع ذلك أبى أن يستسلم لليأس، أخذ يحنو على «بلية» ويغدق عليه المال والحلوى والحب، ويستدرجه في الحديث، واستطاع أن يعرف عدداً من الأماكن في مناطق شعبية شبه مغلقة، يختلط فيها اللصوص بتجار المخدرات وسكان المقابر ونجوم الفن الساقط، ومتداولو العملة الصعبة في السوق السوداء، ومزورو أختام الوزارات

والجوازات والبطاقات العائلية والشخصية والشهادات العلمية والخبرة وحسن السير والسلوك..

واستطاع أن يرى بعينيه أشياء كثيرة مسروقة، لكن الونش لم يكن من بينها. وفكر أن يبلغ الشرطة عند المسروقات التي عاينها بنفسه، تماماً كما حدثته نفسه من قبل عن الإرشاد عن غرزة الحشيش الذي اصطحبه إليها حنفي، لكنه رأى إرجاء البت في مثل هذه الأمور، حتى يكشف عن أكبر قدر ممكن من المعلومات، ويسجلها في الملف الذي يأتمنه على كل خلجاته وأسراره وأفكاره..

كتب إلى أخته بدرية يقول: «إنني على وشك الإفلاس، وأحمد الله على نعمائه، فقد سخر لي أناساً طيبين يعينونني على نوائب الدهر، ويمدون لي يد المساعدة.. أخص منهم بالذكر صاحبي في المسكن بيومي - وهو من محاسيب السيدة - والأسطى حنفي الذي كان يسوق الونش المسروق، وهو الآن يسوق ونشاً آخر، ويقول بدون وفاء لونشه الضائع: إنني أؤدي عملي على أي ونش موجود، ولا فرق بين هذا وذاك، «يموت السبع يأتي سبع غيره» هكذا يقول.. وله وجهة نظر هي أن الشيء الذي لا يملكه لا يبكي عليه أو يحزن من أجله، عاطفته مرتبطة بما يملك، وحيث أنه لم يكن مالكاً للونش المفقود فإنه لم يذرف دمعة واحدة عليه، ومن الشخصيات التي

دخلت قلبي وأكن لها فائق الاحترام الست «أم صابـرين» صاحبة كشك السجائر المقام في الميدان العام الذي سرق منه الونش علانية بدون أن يتدخل أحد لإنقاذه.. الست أم صـابرين سيـدة فاضلة، ولا أكتمـك أنها تنـاسبني تمـاماً كزوجة.. وهي الوحيدة في الدنيا التي تكـرمت وتجرأت وطلبت مني الزواج، وهي أول امرأة تؤكد لي بطلبها ذاك أني إنسان محترم حر شريف، يقدر المسئولية، ويمكن أن أكون محبوباً برغم الشامتيـن والساخرين وحضرة العمـدة لا أدري، لكن المؤكد أن لحظات سعيدة مرت بي.. كنت في نشوة ما بعدها نشوة!! في عينيها ينبوع يفيض بالبراءة والصدق، لغة العيون لا تخطىء.. قلت لنفسي لا تـطل النـظر يا عبـد المتجلي، لأن ذلك حـرام.. فلك النـظرة الأولى، وعليك الثانيـة، سامحني الله، كلمـا لفح الـظمأ روحي، وأحـرق جوفي نـظرت إليها.. وأعـود لأطـأطىء رأسي.. إن قوة غاشمة تدفعني إليها دفعاً، ولهـذا انفتح قلبي لمشروع الزواج.. ليست هناك أعباء مادية، فلديهـا المسكن ومدخرات تكفي.. قد آتي لقضاء شهر العسل في القرية.. وقـد لا آتي.. لكنكم - أنت وأمي - لا بد وأن تشاركوني في حفل الزفاف المتواضع.. الزواج يا بدريـة عصمة، وهو نصف الدين.. أم صابرين ليست طامعة، فأنا لا أملك من حطام الدنيا إلا بضعة قراريط وجزء من بقرة

ونسبة من حمار. . ثروتي أحلامي. . ومرفق بخطابي طلب جديد إلى رئيسي في العمل كي يوافق على منحي شهراً آخر كإجازة بدون مرتب، نظراً لأن موضوع الونش لم يزل معلقاً. . والكارثة أن ونشاً ـ وربما أوناشاً أخرى ـ أصابها نفس المصير، معنى ذلك أن أظل طول حياتي رهيناً للأوناش المفقودة. . وهذا يحتاج إلى تكوين جهاز فني متخصص لمواصلة الكفاح. .

تحياتي للشيخ الطوخي، وأهل الكَفْر، ولشبابها الناهض وأعلموا الجميع إنني ما زلت على العهد، وسأظل منافحاً عن الحقيقة حتى يظهرها الله أو أهلك دونها. .

وفي الختام، لكم مني ألف سلام. .».

إمضاء

الراجي عفو الغفار، الفقير إلى الله

«عبد المتجلي. . . .»

صاحت بدرية كما تصيح النسوة في الجنائز، وغرق وجهها في الدمع الغزير، وأمها العجوز أخذت تضرب الأرض وصدرها الناحل بقبضتها العجفاء وتقول: «عوضي عليك يا رب. . تزوج عبد المتجلي ساقطة من أهل البندر. . أرمل. . بائعة في كشك. . كيف فعلها؟؟ ألم أقل إنه مخبول، فضحيتنا على كل لسان»، وقالت بدرية: «قلبي يحدثني بأن أشرف سوف يفسخ الخطبة. . عبد المتجلي ـ

سامحه الله ـ أضاعنا بعد أن أضاع نفسه.. ما الحيلة يا أمي؟؟ أأذهب إليه؟؟ أأبلغ عنه الشرط لإنقاذه وحمايته؟؟ إنه ليس قاصراً.. لقد حرت، وأكاد أفقد عقلي.. إن أخي في حالة سيئة.. أهل البلد يكادون يجمعون على ذلك.. كيف تركناه هكذا منذ البداية؟؟ لا بد أن نذهب إليه حيث هو ونرغمه على العودة مهما كان الثمن.. وليكن معنا رجل محترم مسموع الكلمة من أهل البلد، ولا حل سوى هذا..».

ومع ذلك فإن بدرية سارعت بكتابة رسالة إليه تشرح له فيها ما يتهددهم من مصائب..

سرت الشائعة في «كفر أبو سالم» مسرى النار في الهشيم، وامتلأت الأزقة والحواري بالتعليقات الساخرة، وأضاف المبدعون إلى الخبر أخباراً إضافية كثيرة، فمن قائل أن عروس عبد المتجلي تاجرة مخدرات من النوع الثقيل، وثان يقول أن لها من الأولاد سبعة «.. أي والله بعقد الهاء سبعة..» وثالث يزعم أنها تزوجت قبله خمسة قضت عليهم جميعاً، فماتوا في ظروف مشبوهة، ورابع أكد بثقة أن زوجها الأخير محكوم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة في ليمان «أبو زعبل»، وأنها حصلت ـ بحكم قضائي ـ على الطلاق منه طبقاً للقانون الأخير الخاص بالأحوال الشخصية، لكن أحد الخبثاء روى أنه التقى في

«المحروسة» بعبد المتجلي والست أم صابرين، وتّهم أنها «معلمة» كبيرة ورئيسة عصابة لسرقة السيارات والأوناش، وأنها أقنعت عبد المتجلي باقتسام عائد الونش مناصفة، ولا من رأى، ولا من سمع.. أثمرت الكلمات مائة حكاية وحكاية، وتاهت الحقيقة في خضم القيء الذي يطفحه الكذابون وصانعو الأخبار، أما حضرة العمدة فقد كتب تقريراً سرياً، وضعه في غلاف حكومي أصفر مختوماً بالشمع الأحمر، وبعث به إلى مباحث أمن الدولة..

* * *

(٦)

بدأ القلق يساور بيومي رفيق السطح العاري، أشفق على «عبد المتجلي» الطيب القلب، الذي تتمثل فيه - حسب ظنه - براءة الريفي وسذاجته، كل تصرفاته توحي بالغفلة وعدم تقدير العواقب، إنه يحاور في ذكاء، ويتصرف أحياناً كثيرة بغباء، كلماته أكبر من سنه وبيئته، وقراراته تتسم بالطيش، وبدا واضحاً أن موضوع زواجه من أم صابرين أزعجه غاية الإزعاج، إذ ليس لديه عنها القدر الكافي من المعلومات، إن عبد المتجلي يدقق ويحلل في موضوع الونش، لكنه بالنسبة لصاحبة الكشك ألقى بنفسه في دوامة مجنونة، وهو لا يحسن السباحة، وليس في يده قشة يتشبث بها لتحميه من الغرق، شرح بيومي المشكلة لواحد من أصدقائه «المحاسيب» في رحاب السيدة، تألم الرجل لحاله، وأوصى بيومي أن يحضره له ليقرأ له الطالع ويوصيه بما يجب، فأهل الريف البسطاء كثيراً ما يثقون في قارئي البخت، وضاربي الودع، وقراء الطالع، وهي مجرد محاولة بعد أن عجز بيومي عن التأثير فيه، وإثنائه عن عزمه في الزواج، واستمرار البحث عن الونش، وأخذه معه بعد المغرب إلى «خلوة» العابد، ارتعش عبد المتجلي وهو يدلف إلى الغرفة الصغيرة ذات الضوء الخافت، كان ضوء

الشمعة يتراقص في كسل، وظلال سحرية تثب على الجدران والوجوه والأثاث العتيق البسيط، ورائحة البخور تعبىء المكان بأريج طيب، والشيخ متربع على سجادة مهترئة عليها صورة الكعبة والمآذن، وأشار الشيخ إليه فجلس، أخذ عبدالمتجلي يتلفت يمنة ويسرة، وعيناه تتأرجحان، وانبعث صوت الشيخ آمراً كأنه القدر:

ــ «إخشع يا ابن رمانة».

ووجد عبد المتجلي صوته ينبعث في طاعة فطرية كأنه طفل مذعور:

ــ «خشعت يا سيدنا».

وأردف الشيخ:

ــ «واعلم أن للبيت ربًّا يحميه».

ــ «أعلم..».

«.أنك تافه.. ولا تساوى عند الله جناح بعوضة».

ــ «لو كنت صادقاً يا عبد المتجلي لنفضت عن رأسك أوهام الغرور».

هنا توقف عبد المتجلي، واستعاد قدراً من الثبات والقوة، فقال:

ـ «الغرور مركب الشيطان، وما كنت له يوماً مطية..».

صرخ الشيخ في خدة:

ـ «بل كنت..».

ـ «متى يا سيدنا؟».

ـ «منذ ظننت أنك مبعوث العناية الإلهية، وأنك قادر على إصلاح الكون وحدك».

طأطأ رأسه وهمس:

ـ «فعلاً.. ظننت..».

ـ «وبعض الظن إثم».

ـ «أجل...».

سادت فترة صمت، تلفت عبد المتجلي حوله، فلم يجد بيومي، ازدادت مخاوفه، لكنه تماسك، حاول أن [illegible]

شعر عبد المتجلي أن حجمه يصغر إزاء المطلق، وإن اعتزازه بقدراته الخارقة يضمر، وقال الشيخ وهو يؤكد على حروف الكلمات:

ـ «وأن مقام العبودية هو العز
له الحكم
وإليه ترجعون
حيٌّ قيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم..».

ـ «صدقت يا سيدنا.. كل ما في الأمر أني..».

قاطعه بحزم:

ـ «الأمر لصاحب الأمر يا عبد المتجلي».

ـ «أعني.. أردت أن أفعل شيئاً».

ـ «وما فعلت شيئاً..».

ـ «والظلم يا سيدنا؟؟».

ـ «عاقبته وخيمة..».

ـ «والفساد..».

ـ «دولة الباطل ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة..».

ـ «وكيف؟؟».

ـ «إبدأ بنفسك.. ثم بمن تعول..».

ـ «تلك هي المشكلة يا سيدنا.. وقد نفد الصبر».

أمسك الشيخ يد عبد المتجلي بقوة ورفع إليه وجهه

المشرب بالحمرة ذا اللحية البيضاء، والعينين الصافيتين وقال:

ــ «هل وجدت الونش؟؟».

ــ «لا».

ــ «ومتى ستجده؟؟».

ــ «علم هذا عند الله . .».

ــ «وأختك بدرية فسخت خطبتها».

دق قلبه ذعراً وهتف:

ــ «كيف عرفت؟؟».

ــ «إذا جاؤوك يا عبد المتجلي، فعد معهم من حيث جئت، وازرع أرضك، وقل للناس حسناً، وأقم الصلاة . . واقرأ كتاب الكون الكبير قبل أن تقرأ كتب السياسة والزعماء . . وانظر في كتاب الله كل يوم . . قم . . واذهب لصلاة الشفع والوتر . .».

إنطفأت الشمعة، وساد الظلام، وشعر عبد المتجلي بيد تجره إلى الخارج، وعندما دخل إلى عالم النور من جديد كان بيومي إلى جواره، وسلمه بيومي رسالة وردت بالبريد من البلد، ولاحظ عبدالمتجلي أنها مفتوحة، لكنه كان في شغل عن ذلك، ولم يحاول أن يسأل عن سبب

فتحها.

ألعرق يتصبب من جبينه، نظراته تائهة، الأمواج تتقاذفه، ويداه تضربان، والهدير يصم أذنيه، والأصوات تختلط، وبيومي صامت لا يتكلم، صعدا الدرج وهو كالحالم، ألقى بجثته على «الكليم» العتيق، لم يكن لديه أدنى رغبة في طعام أو شراب، قال بيومي:

ــ «لقد كتب لك الشيخ وصفة تجلب لك الشفاء إن شاء الله».

وأخرج ورقة مكتوب فيها بعض الكلمات بحروف متقطعة، وشرح له أن عليه وضعها في كوب من الماء، حتى يذوب الحبر ثم يشرب باسم الله..

ــ «وما نفعها يا بيومي».

ــ «إن لم تنفع فلن تضر..».

تناول الورقة، وقرأها، كانت آية من القرآن، وضعها في جيبه، وظل شارداً، إنه يفكر هل سيتراجع أم يمضي فيما اعتزمه، هو حقاً يوغل في المجهول، ويقضي أيامه متعباً مكدوداً بدون أن يجني فائدة تذكر، لكنه يكتسب خبرات جديدة كل يوم.. «آه.. أأعود إلى البلد خاوي الوفاض، وأصبح أضحوكة بين البشر؟»... اشتاق فعلاً إلى الأرض، لشد ما يحب الزرع الأخضر، قالت له أمه ذات

مرة: «الأرض تفرح بصاحبها» أي والله.. قالتها بـالحرف الـواحد، تمعن يـومهـا في هـذه الكلمـات البسيـطة التي خرجت من بين شفتيها.. ذهب إلى الغيط.. ومشى وسط السنـابـل الخضـراء.. خيـل إليـه أن الأرض تغني أغنيـة عاشق، وأن أعواد القمح تتراقص في دلال، وتلامس يديه، وتعانقه «الأرض تفرح بصاحبها».. تسابيح يترنم بها قلبه، هو فعلاً مشتاق، وهو يحب أم صابرين، وقد وعدها، ذهب إليهـا ليناقش موضـوع الفـرح، والاستعـدادات الـواجب اتخاذها، «صابرين» الصغيرة لن تكون عقبة، وأمها امـرأة ناضجة ومن النوع الذي يقدس الحياة الزوجية، تقف في محلها في كبرياء العفيفة، وشموخ المتمكنة، أشعة عينيها فيهـا دفء من نـوع غـريب.. النـظرة الأولى أصبحت أربعة.. خمسة.. عشرة.. إلامَ ينتظر؟؟ قالت له في إيجاز مذهل:

ـ «الأمر في غاية البساطة.. شاهدان ومأذون، ونعود إلى بيتنا زوجين..».

ثم أشـارت إلى عصـافيـر فـوق الشجـرة التي تـظلل الكشك وقالت:

ـ «هكذا تفعل العصـافير.. إنهـا في زفاف دائم.. وغناء..».

لم يستطع بيومي أن يمنع المكتوب، وشيخ الخلوة قال لا بأس، ما دام على سنة الله ورسوله، ولو كان الصداق بضع تمرات، فلماذا تعقدون الأمور؟؟ ليلتها أدرك أنه دخل دنيا جديدة، وارتدى بذلة جديدة أيضاً، وأكل حتى أتخم، وتـوارى شبح الـونش العتيد خلف الستـائـر الأرجـوانيـة. والظـلال المتوهجة في الغرفة، وفي روحه ودمه، وقال لها وهو يتثاءب في الضحى الذهبي الحنون:

ــ «أين سنعيش؟؟».

قالت:

ــ «حيث نجد رزقنا يا سي عبد المتجلي.. مصر كلها لنا.. والبلد بلدنا، وأنا وراءك حيث تخطو. طاعة الزوج عبادة، وأنت رجل مؤمن تعرف الله.. وهذا يكفي..».

نظر إلى السقف وتمتم:

ــ «الأرض تفرح بصاحبها..».

ــ «وصاحبها يفرح بها..».

ــ «وكيف الفرح بدون لقاء..».

ــ «الفرح فوق الزمان والمكان».

ابتسم وقال:

ــ «حب بالمراسلة؟؟».

ـ «لا تحمل هماً. . وافعل ما يحلو لك».

ـ «لن أعيش عالة».

ـ «بالطبع. .».

ـ «وما هو العمل المناسب؟».

ـ «ما تحبه. . بشرط ألا يكون هو البحث عن الونش».

أشار بسبابته محذراً:

ـ «إلا الونش. .».

ـ «على أن يكون ذلك في وقت الفراغ. .».

ـ «كلامك يبدو معقولاً. .».

وذهبا يوم الجمعة إلى حديقة الحيوان، وسعد كطفل برؤية القرود والأسود والزرافة والفيل والجمل ذي السنامين، والذئب الذي قرأ عنه في كتب المدرسة ذلك الذي ينام وإحدى عينيه مفتوحة، أعجبته القرود جداً، وخاصة القردة وهي تحنو على أولادها، وتقدم فروض الطاعة والولاء لزوجها. . أكلا الشطائر المحشوة باللحم المفروم، وأتبعاها بالتين البرشومي، إنه يعشق التين، وذهبا إلى السينما في المساء، كانت داراً من الدرجة الثالثة، وأعجبته قصة «سلاّمة». . كاد ينسى الونش تماماً لولا أن رأى شبيهاً له في

أحد الأفلام الأجنبية، كان يلاحق الترجمة بإمعان، أعجبه النشاط الصناعي والعمراني في الغرب، تمتم: «إسرائيل هزمت العرب بالتكنولوجيا» قالت: «ولم لا نشتريها؟؟» همس: «إنها لا تشترى كما تشترى «الكوسة»، لا بد أن تنتج محلياً، وإلا فستظل ناقصة.. ستقولين ولماذا لا نفعل؟؟ وأنا أقول هناك ألف سبب وسبب، لكن ليس من بينها الاستعمار، ولكن من المؤكد أن غفلتنا هي العلة.. دائماً نعيش ماضينا أو يومنا، ولكننا لا نفكر في غدنا..».

قرصته من ذراعه خفية، وقالت وابتسامتها ونظراتها تتألق في ظلام الصالة المكتظة بالجمهور: «اعمل معروفاً، ولا تحدثني عن الونش» تمتم مرة أخرى: «أعرف أننا في شهر العسل.. لكن لابد أن نسافر إلى الأهل في «كفر أبو سالم».. هذا واجب».

إشتد حنينه إلى «أم العواجز»، فأوصل زوجه إلى محلها، واتجه إلى المسجد، ولم ينس في الطريق أن يتنسم أخبار الونش المفقود، لاحظ أن عينين تلاحقانه وهو يتحدث مع بلية، مجرد صدفة، ولهذا لا يجب أن يكترث، لكنه كلما نظر ناحية الرجل الذي يراقبه أمسك به متلبساً ينظر ويرهف السمع، لا بأس فهو لا يستطيع أن يحد من حرية الآخرين حين ينظرون أو يتحركون، لكن شيئاً من القلق يتفشى في داخله ويكربه، كلمات «بلية» له هذه المرة

شدت أعصابه بقوة، «بلية» أخبره أن الونش المفقود قد بيع لناس من الصعيد.. جن جنونه.. مستحيل. وماذا يفعلون بالونش في الصعيد.. هذا لا يهم، لو صدقت أخبار بلية، فسيكون النجاح على وشك التحقق، في أي مكان في الصعيد يا بلية؟؟ أسيوط؟؟ ولماذا أسيوط بالذات؟؟ بلية لا يعرف.. آه.. في الصعيد لا يأمن العواقب، فهناك الحوار له قواعده وأصوله حيث يسبق السلاح الكلمات، وأي هفوة ستقضي عليه قضاء مبرماً، ويصبح بحق شهيد الونش.. وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا يستعين بالحكومة، نقطة أخرى أشد إثارة وغرابة.. إن الرجل الذي استولى على الونش وباعه «باشا كبير» من باشاوات هذه الأيام.. عبد المتجلي يعرف أن اللقب ألغى منذ قيام الثورة بمراسيم، لكنه استشرى وأصبح يغدق على كل من هب ودب ما دام يملك النفوذ أو الرصيد المناسب من «الأرانب» «والفيلة».. ولماذا لا يجرب حظه في «أسيوط» بعد أن يتأكد من هذه المعلومة، ويضيف إليها المزيد من المعلومات والدراسات؟؟

تضايقت أم صابرين لحد كبير، لكنها أخفت ما يعتمل في نفسها حتى لا تجرح مشاعره، فذهابه إلى أسيوط حماقة أكبر من حماقته حين أتى إلى القاهرة ليمسك بالسراب، ومعنى هذا الاندفاع أن أي عابث يستطيع أن

يدفع به ليعبر الحدود إلى السودان بحثاً عن الونش إذا أخبره أن تجار الأغنام قد سحبوه إلى الخرطوم مثلاً، وربما يستطيع آخر أن يقنعه بأن قبائل «أولاد علي» سربوه إلى ليبيا، وخاصة أن عشائرهم موزعة بين الجماهيرية الليبية وجمهورية مصر العربية.. وكادت أن تهاجمه بشدة وخاصة أنه أصبح زوجاً مسؤولاً، ولم يعد كالأمس حراً طليقاً، فهناك تغيير جوهري جرى على نمط حياته، ومن ثم يجب أن يتبعه تغيير آخر في البرامج والاهتمامات، لكنها آثرت ألا تفجعه هكذا دفعة واحدة، ومن ثم وضعت في يده مبلغاً من المال وقالت:

ــ «إعلم أنك لو وجدت الونش هناك فلن تستطيع أن تمسه أو حتى تقترب منه، لأن حيازتهم له تعني أنه أصبح ملكهم؛ ولن يجرؤ أحد أن يسألهم من أين أتوا به..».

أصابته الدهشة، وحملق فيها مذهولاً وتمتم: «حكومة ثانية؟؟».

قالت: «تماماً.. إنهم في الجبل، وحتى داخل البلاد يتصرفون وكأنهم مستقلون في كثير من الأمور..».

تردد قليلاً، وجلس ووقف، وأخذ يفرك يديه، لكن دافعاً داخلياً قوياً كان يهتف به كي يمضي في خطته، ولا بأس من أن يطرق الأبواب برفق، ويخطو في حذر، وينتقي

كلماته بحكمه. هو لا يريد أن يستولي على الونش، ولكنه يريد أن يعرف مكانه أولاً، وبعد ذلك تأتي الخطوة التالية من خلال تصرفات قانونية سليمة، وبواسطة السلطة التنفيذية والتشريعية والقضائية، ويمكنه أيضاً أن يحرك الصحافة ويوعز إليها بما يشاء، لكن تبقى مشكلة «الرأس الكبيرة» التي خططت ودبرت للاستيلاء على الونش، ترى من تكون؟ إن هناك قوى شريرة تستطيع أن تتصدى لأي منطق أو عدالة، وعبد المتجلى يطلق عليهم «أباطرة الغابات»، أشبه ما يكونون بالوحوش الضارية الجائعة، لو وقع بين أنيابهم لمزقوه إرباً إرباً، فهم لا يرحمون ولا يتراجعون، يتربصون بكل عصر، ويتكاثرون مع كل عهد، ويتشكلون حسب المواقف.. الحقيقة أنه خائف جداً، ويبدو أن زوجه على حق حين أوضحت له طبيعة الموقف في الصعيد، ما زال يقف مرتبكاً قلقاً في مكانه، وهي ترمقه بنظرات خفية، وتقرأ ما في تعبيرات وجهه من تردد، وعندما أجل السفر ليوم آخر استقبلت أم صابرين الأمر بفتور ظاهري حتى لا تستفزه، وكأنها تريد له أن يختار ما يشاء دون ضغط أو إكراه، وبذلك لا يتسلل العناد إلى قراراته، وقضى ذلك اليوم متسكعاً بين الورش، يجمع الأخبار، ويراقب الصفقات، ويلتقط الكلمات التي تتبعثر هنا وهناك في عالم الخردة العجيب، وكم كانت دهشته حينما ذهب

إلى أحد المقاهي الشعبية الصغيرة يشرب كوباً من الشاي، فإذا به - بعد أن جلس - يرى رجل الأمس ذا النظرات الحديدية التي كانت تحاصره، أهي مصادفة أخرى؟؟ لكن الرجل هذه المرة يلقى التحية والسلام، على عبد المتجلى، ثم يجلس معه، هكذا بدون مقدمات، ويفتح معه موضوع الونش..

بطبيعته الريفية البسيطة قال:

- «وكيف عرفت؟؟».

- «نحن هنا جميعاً نعرفك، ونثني على همتك باعتبارك مواطناً شريفاً، ينكر ذاته..».

إنتشى بكلمات الثناء برغم دهشته، وكانت بداية التعارف والصداقة السريعة، وشعر عبد المتجلي بالارتياح الكبير حينما أخبره الرجل بأنه من «كفر خزاعل» وهو لا يبعد عن كفرهم بأكثر من خمسة كيلومترات، وإن كان داك يتبع مركز «السنطة» وهذا مركز «زفتى».. وتحدثا معاً عن الخيبة الكبرى التي حلت بالبلاد، والفوضى الضاربة بجذورها في شتى المرافق، ومواسير المجاري التي تنفجر، والنيل الذي جف ريقه، والمياه التي لا تصل إلى الأدوار العليا، والكهرباء التي تنقطع من آن لآخر، على الرغم من ارتفاع أسعارها، والزيت الذي اختفى، والرشوة التي

أصبحت عرفاً سائداً، والخسائر التي تنقص بناء القطاع العام، والجامعات والمدارس التي أصبح الكثيرون من خريجيها جهلة، والحشيش الذي يباع جهاراً نهاراً.. ويتكلم «عبد المتجلي» ويتكلم ويتكلم.. وصاحبه يهز رأسه في حرارة قائلاً «أي نعم.. صدقت.. أي نعم».

وينطلق عبد المتجلي شارحاً فساد الجمعيات الزراعية، والتنظيمات الشعبية، وقوانين الإسكان والإيجار، والضرائب التي تجهز على الصغار، وترفع يدها عن الكبار «تصور يا رجل.. تاجر أخشاب يشتري صفقة من الخارج ببضعة عشر مليوناً من الجنيهات يدفع عنها ثمانية وستين جنيهاً وسبعة وتسعين مليماً ضرائب؟؟ هذا تحد لإرادة الأمة.. أتدري لماذا هذا الخراب والضياع والديون؟؟ إنها بسبب البعد عن شرع الله.. نسوا الله فأنساهم أنفسهم»، وقال صاحبه وهو يهم واقفاً:

ـ «صدقت.. هيا بنا».

ـ «إلى أين؟؟».

ـ «سأدلك على من يستطيع أن يقدم لك العون الفعلي للعثور على الونش المفقود، وبعدها تعود إلى بلدك مجبور الخاطر..».

نظر عبد المتجلي إلى الرجل في إمعان وهو لا يكاد

يصدق، لكن لعل الله أراد له الخير، فقدم له هذه الصداقة الجديدة ليعوضه عن متاعب الأمس، وحيرة اليوم، ومع ذلك فقد أصر أن يذهبا معاً إلى محطة السكة الحديد أولاً، ليحجز مكاناً إلى أسيوط بالقطار، ولم يستجب عبد المتجلي لرجاء صاحبه كي يؤجل ذلك، فركبا الحافلة إلى باب الحديد، وأنجزا المهمة بعد مشقة وعسر..

عندما نزلا في ميدان «لاظوغلي» قال عبد المتجلي:

ـ «أين نحن؟؟».

ـ «بين فكي الأسد..».

ـ «الأسماء هنا غريبة.. شق الثعبان.. زنقة الستات، المدبح.. ما هذا؟؟».

دلفا إلى الباب الواسع الذي يحرسه رجال مدججون، لم ير عبد المتجلي الإشارات المتبادلة، سارا إلى مكتب جانبي، وهمس صاحبه في أذن الجالس الذي تفحصه بريبة، لكن الموقف لم يتعد ثلاث دقائق، الناس من حولهم لا يتكلمون إلا همساً، والحركة خفيفة وسريعة ومعبرة، يتحاورون بالنظرات والإشارات بدون أن يفتحوا أفواههم، وربما يغمغمون ويهمهمون بطريقة لا تفهم.. ودخل عبد المتجلي وراء صاحبه إلى المصعد...

وصعد.. صعد إلى أعلى.. ما أجمل المصعد وهو

يعلو كالبراق..

* * *

(٧)

أخذوا يدفعونه صامتين من مكان إلى آخر، وهو يحاول أن يلتقط المشاهد المتوالية بعيون قلقة دهشة، قلبه ليس مطمئناً، الرجل الذي يرافقه تغيرت سحنته، حتى بدا وكأنه إنسان آخر غير الذي كان معه في المقهى، حاول «عبد المتجلي» أن يطرح بعض الأسئلة ليفهم، فلم يجد أذناً صاغية، أو لعلهم يسمعون ولكنهم صاموا عن الكلام: «إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً» صدق الله العظيم. . . أمسك بذراع المرافق الصامت وجذبه بشدة وصرخ: «ماذا يحدث؟؟» إنبعثت أشعة نارية من عيني الرجل ثم نزع يده ووجه إلى صدره قبضة ثقيلة آلمته وقال: «إسمعْ. . أنت هنا لتجيب لا لتسأل. . .» لم يفهم ماذا يقصد بالضبط، لكن خالجه شك، حاول أن يتكلم، لكنه صرف عنه وجهه الغاضب الكالح وأمسك بياقة قميصه من الخلف وأخذ يجره، شعر بالتضاؤل والمهانة، لكن صوتاً داخلياً أوعز إليه أن يتحمل ويصبر، والصبر دائماً خير وفيه السلامة. . . ومر بخاطره هاجس: «أيكون هؤلاء القوم هم الذين سرقوا الونش، وعندما علموا بأني جاد في البحث عنه وأوشك أن أضع يدي على الحقيقة بادروا باختطافي حتى لا

ينكشف أمرهم؟؟؟ هذا جائز جداً، فهذه المدينة مليئة بالعصابات والألغاز والقوى الشريرة الخفية.. إيه يا بلد العجائب!!! ألم تسرقوا الونش؟».

دخل مكتباً صغيراً مليئاً بالملفات والأرفف، تفوح منه رائحة الدخان والغبار وبعض المواد الكيميائية، ضاقت نفسه وكاد يتقيأ، شعر بشيء من السخط حينما أغلقوا عليه الباب، تلفت حوله فلم يجد أحداً، نظر إلى المكتب المعدني الصدىء فوجد لافتة صغيرة مكتوباً عليها اسم ضابط برتبة رائد.. من يدري لعله المسئول عن السرقات، كان شارداً يفكر، وفجأة سمع صوتاً أجش ينبعث من خلفه:

ـ «وقعت أخيراً في أيدينا».

إحتقن وجهه، دق قلبه، تلاحقت أنفاسه من المباغتة، والتفت هاتفاً: «من.. من؟».

كان شاباً أنيقاً نظيفاً، مشرق الوجه، في جبهته زبيبة صلاة كبيرة لا تخطئها العين، وفي عينيه صفاء مبتسم. وقال الرجل:

ـ «بدون مقدمات. . أريد أن أعرف متى بدأ نشاطك؟ ومن المسئول عنك؟ وفي أي تنظيم أنت؟؟. . ».

صمت عبد المتجلي برهة ليجمع شتات نفسه، ثم تنهد وقال في صعوبة:

ـ «في الواقع أن الموضوع شغلني منذ البداية، لكنني لم أطق صبراً عندما قرأت أن القضية قيدت «ضد مجهول»، فكيف يمكن السكوت على جريمة بشعة كهذه؟؟ معناها أن البلد كلها أصبحت معرضة لأخطار مدمرة. . لهذا تحركت وكان فرضاً عليّ أن أتحرك. . ».

إبتسم الضابط في ارتياح، وقال بابتسامة حلوة:

ـ «والمسئول؟ ما اسمه؟».

ـ . . أنا المسئول عن كل شيء. . كلكم راع. . ومسئول عن رعيته».

إضطجع الضابط إلى الخلف وقال متهكماً:

ـ «ومن رعاياك يا مولاي؟».

ـ «أستغفر الله. . ».

وابتلع ريقه، ثم استطرد:

ـ «سرقة الونش أرقتني. . حاولت أن أوضح الأمر

للناس، سخر البعض، وفهمني البعض الآخر، لا يهمني كل ذلك ما دمت أنا مقتنع بما أفعل..».

غمز الضابط بإحدى عينيه، رآه عبد المتجلي يفعل ذلك فتعجب، لكن عجبه لم يطل، فقد هوت صفعات سريعة على قفاه بدون إنذار، التفت إلى الخلف، فوقعت عيناه على رفيق المقهى، أصبح وجهه كوجه الشيطان، لم يطل نظره إليه، فقد صدمته لكمة على جانب وجهه أوقعته على الأرض، حاول أن ينهض فباغتته ركلة قوية في بطنه وآلمته بشدة فانبطح وقد اصفرّ وجهه، وسمع الضابط يصيح:

ــ أتركوه أيها الأوباش.. أنا لم آمركم بذلك.. أخرجوا..».

حينما أفاق عبد المتجلي فتح عينين كسيرتين وتمتم:

ــ «لماذا كل هذا؟؟».

أخذ الضابط يربت على رأسه في حنان ومودة، ثم أخذ بيده وأجلسه على المقعد المجاور للمكتب، وضغط على الجرس، فقدم أحد المخبرين:

ــ «هات الشاي للأستاذ عبد المتجلي».

جلس عبد المتجلي حائراً مهموماً، لا يفهم على وجه

اليقين ذلك السيناريو الرهيب، لكن الضابط لم يدعه يهيم في أفكاره المشوشة، أخذ يقول له: «أنا عبد المتجلى رجل أخاف الله.. وأنظر إلى كل المواطنين كإخوة لا فرق بيننا إلا في نوع المسئولية، عشت طول حياتي أؤمن بالله وبشريعته الغراء، وأؤدي الفرائض في وقتها، حججت ثلاث مرات، بالإضافة إلى خمس عمرات.. أنت لا تعرف يا عبدالمتجلي تلك المشاعر الروحية السماوية التي تغمرك وأنت تطوف بالكعبة أو تقف أمام قبر الرسول الأعظمﷺ... إن الدنيا كلها لا تساوي لحظة من هذه اللحظات.. لهذا أنا واثق أنك تقدر إخلاصي وحبي لك.. دعني أسألك بوضوح أكثر:

ـ «هل أنت من تنظيم الجهاد، أم الجماعات الإسلامية، أم من التكفير والهجرة، أم من الإخوان المسلمين أم من جمعية التبليغ أم من الطرق الصوفية.. أم؟».

ساد الارتباك عبد المتجلي، وقال ببراءة:

ـ «وما صلة هؤلاء بالونش؟؟ ثم إنني لا أعرف الفرق بينهم، وليس لي أدنى صلة بهم..».

دق الضابط بيده على المكتب وقال بغضب:

ـ «لكي نتعامل كإخوة مسلمين يجب أن تكون واضحاً

وصريحاً».

ـ «بالتأكيد..».

ـ «فلتجب، إلى أي فريق تنتمي؟؟».

قال عبد المتجلي.

ـ «لقد أجبت.. وأنا رجل أقرأ وحدي.. وأعمل كما ترى وحدي.. وأنا بصراحة رجل على باب الله..»

رمى إليه الضابط بقائمة كبيرة من الكتب، وطلب منه أن يقرأها، وكم كانت دهشة عبد المتجلي عندما أدرك أنها نفس الكتب التي يقرأ فيها منذ سنوات، ويحفظها في دولاب عتيق ببيته، إنها خليط من كتب السياسة والاقتصاد والشعر والقصص والتفسير والفقه وتبسيط الفلسفة، وبعض الكتب العلمية عن ميكانيكا السيارات والكمبيوتر والصناعات الغذائية وغيرها.

وتمتم الضابط وهو يضغط على أسنانه:

ـ «إن فيها الكثير من الكتب التي يتغذى عليها المتطرفون».

ـ «متطرفون؟؟ كيف؟ إن فيها مجنون ليلى، والأغاني، ورباعيات الخيام ونزار قباني..».

إنقلبت سحنة الضابط وقال في ضيق:

ـ «وفيهـا أيضـاً كتب «معـالـم في الـطريق» و«رحلة إلى الله» و«الفـريضة الغـائبة» ومؤلفـات «الشيـخ كشـك» وجمهورية أفلاطونية».

ـ «سيـدي أنا أقـرأ مـا أجـده على الأرصفـة أو في المكتبات».

ـ «أعرف، لكن الاختيار له معنى عندنا..».

ـ «وهو ليس له معنى عندي سوى أن أقرأ.. أنا مدمن قراءة..».

هب الضابط واقفاً وقال:

ـ «وأنت تهاجم الحكومة في المساجد».

ـ «من قال ذلك؟؟».

ـ «أجب ولا تسأل، إن لنا مصادر معلومات مؤكدة».

ـ «إنهم يكذبون».

ـ «أهل بلدك لا يكذبون».

ـ «حاشا لله.. إنهم طيبون».

ـ «هؤلاء الطيبون شهدوا ضدك».

ـ «متى؟؟».

ـ «منذ أن بدأت تمثيليـة «الونش» للتعميـة.. نحن

وراءك منذ البداية.. عندما سافرت، ونزلت قرب «السيدة زينب».

واتصلت بأم صابرين، وزرت الورش.. وتعرفت على «بلية».. هل تتذكر بلية.. وحنفي وبيومي والمجاذيب، وجلسة الحشاشين.. نعرف أنك رفضت الحشيش، وهذا هو الذي أكد لنا هويتك.. وكنت على وشك السفر إلى أسيوط..».

وصمت الضابط برهة، ثم اقترب من عبد المتجلي وأمسك بكتفه اليسرى وهزه بقوة وهو يقول:

ـ «أنت ضابط اتصال».

شحب وجه عبد المتجلي مرة أخرى وهتف في تعجب:

ـ «ضابط؟؟».

ـ «نعم..».

ـ «لا شك أنكم أخطأتم في إسمي.. أنا لم أكن ضابطاً ولا حتى عسكرياً طول حياتي.. إنه تلفيق يا سعادة البك.. وما أنا إلا موظف بسيط بدبلوم الصنايع ومنتسب لكلية الحقوق هذا وضعي».

إن موضوع الونش لم يكن مقنعاً للضابط، بل هو ـ

حسبما يرى ـ مجرد ستار يختفي وراءه عبد المتجلي الحقيقي . . عبد المتجلي المتطرف ذو الوجه الإرهابي القبيح ، الذي ينقل الرسائل والأوامر بين الفصائل الإسلامية المتطرفة في المحافظات والقاهرة وأسيوط، والصعيد بصفة عامة، حيث تتصف هذه الجماعات المتطرفة بالعناء والإصرار والمغامرة، ولا شك أن عبد المتجلي إذا تكلم فلسوف يكشف عن أسرار رهيبة تشي بالكثير من الحوادث الغريبة التي تتعلق ببعض محاولات الاغتيال والمتفجرات والتحركات الغامضة.

لم يصدق عبد المتجلي ما يسمعه من الضابط المحقق، وطاف بذهنه خاطر ملح، لكنه يخاف أن يفصح عنه، إنه الآن في مأزق خطر، وعليه أن يتصرف بحكمة، وأن يتحلى ولو بقدر قليل من الشجاعة، وقال عبد المتجلي بصوت خفيض:

ـ «سيدي . . لأكن صريحاً معك . . هل تريدون مني أن أكف عن البحث عن الونش؟؟ وهل أفهم من ذلك أنكم تعرفون أين اختفى الونش؟؟ في هذه الحالة يمكن أن . . ».

صرخ الضابط:

ـ «أتساومني أيها الكلب؟؟ أو تحسب أننا ضالعون في سرقته؟؟».

ثمَ قهقه الضابط:

ـ «إنك ضليع في التضليل.. أنت داهية.. تريد أن توهمني بأن الونش هو قضيتك.. وأنك لا تعرف شيئاً عن المتطرفين والتنظيمات.. حسناً.. لقد أعطيتك فرصة ذهبية، لكنك ستضيعها بغبائك.. لقد تعاملت معك بأخوة بشرط الصدق والصراحة، وها أنت تخل بالشروط.. ذنبك على جنبك يا عبد المتجلي..».

وضغط الجرس بطريقة خاصة.

دخل الزبانية.. لم يقل الضابط كلمة، لكنهم كانوا يفهمون، أمسكوا بشعر عبد المتجلي وجروه في عنف وسرعة، وهم يكيلون له الضرب والسب، وصرخ عبد المتجلي بدون وعي:

ـ «إنهم يسحلونني يا بك...».

تمتم الضابط وهو يشعل السيجارة بقداحته الذهبية:

ـ «إنك لمْ ترَ شيئاً بعد».

هذا العالم الأصم لا يسمع صراخه وتأوهاته، وذلك التيه الرهيب الذي يترامى داخل جدران الزنزانة الأربعة لا نهاية له، والسياط والعصي والأيدي والألسنة تعزف مقطوعة دامية رهيبة تنداح موجاتها الوحشية في روحه وجسده

وعقله، وفي لمحة خاطفة عرف معنى القهر الحقيقي، وفهم لأول مرة في حياته معنى الكفر، وبدا له أن الانتماء الحقيقي، والصدق الإنساني يعني الموت في كثير من الأحيان..

كان يتمتم بينه وبين نفسه: «المشكلة المأساوية أنهم لا يفهمونني، وأنا لا أفهمهم، كلانا يتكلم لغة خاصة به، الشك وسوء الظن والحقد هم سادة الموقف».

عبد المتجلي يشرب كأس الحنظل في محبسه، «وكَفْر أبو سالم» - أو كفر كلام - قد انتشرت فيه الشائعات، فقد عرفوا أن عبد المتجلي قد ألقي القبض عليه، وأنه تحت التحقيق في مباحث أمن الدولة، وقد رأوا بأنفسهم حملة وصلت القرية لتفتيش بيته وسؤال أمه وأخته وبعض أصدقائه المقربين، .وأخذوا الكتب التي دفع فيها كل ما يملك، وأشيع أيضاً أنهم وجدوا أثناء التفتيش وثائق هامة لها خطورتها، كما عثروا على كمية من الذخيرة الحية والمتفجرات الصغيرة المصنوعة من أعواد الكبريت في مخبإ بحظيرة المواشي، وقال آخرون أن عبد المتجلي اللئيم الحويط كان من قادة المتطرفين على مستوى الجمهورية، وأن له صلة ببعض الأحداث الإرهابية التي جرت مؤخراً، ولم يكن أحد بقادر على أن يعرف مدى صدق هذه الإشاعات ولا مصادرها الحقيقية، لكن الحاج «إسماعيل

المغربي» قال:

ـ «يا ناس لا تصدقوا هذه المزاعم.. إنها إشاعات مخبرين.. وهو أسلوب يلجأون إليه لتلويث سمعة المعارضين منذ أيام عبد الناصر.. أنتم طيبون وتنسون ما جرى.. وعبد المتجلى إنسان طيب ساذج أوقعه إخلاصه الطفولي في مأزق قاتل..».

أصبح بيت عبد المتجلي كالوباء يفر الناس منه، وحتى المجاملات الإنسانية لم يعد لها ضرورة بالنسبة لأمه وأخته، وقالت الأم:

ـ «لقد جر على نفسه المصائب.. لكن لا بد أن نوكل له أحد المحامين.. ولا مانع من أن نبيع الأرض لنشتري رجلنا..».

وعندما لم يعد عبد المتجلي إلى شقته لدى أم صابرين أوجست خيفة، لكنها اعتصمت بالصبر على أساس أنه قد نفذ برنامج السفر إلى الصعيد، وفي الصباح جاءها الاسطى حنفي بالنبإ المشئوم، حيث أخبرها أنهم استدعوه كما استدعوا بيومي لأخذ أقوالهم، وأنه رأى عبد المتجلي في حالة يرثى لها من الإهانة والإهمال، فجن جنونها وأخذت تصيح على ناصية الشارع، وتسب وتلعن أولئك الذين اختطفوا زوجها خفية، واتهمتهم بأنهم لصوص وقطاع

طرق، وأنهم.. وأنهم.. وأغلقت محلها، وهرولت إلى حيث ألقوا عبد المتجلي، لم يكن الأمر سهلاً، فقد كانت لا تجد من يرشدها أو يتعطف عليها بتوضيح الموقف، ولا أسلوب التعامل.. ولم تجد بداً من أن تذهب إلى أحد المحامين الذين تعرفهم، فأوصاها بأن تذهب إلى زميل له يستطيع أن يتعامل مع القضايا السياسية، لأنه هو شخصياً متخصص في قضايا المخدرات..

على «باب السيدة» كان الزحام شديداً، الذاكرون يتطوحون، والمنشدون يغنون قصائد العشق الإلهي، والطبول تدق، والباعة يتسابقون في الإعلان عن سلعهم، ورجل يلبس عمامة خضراء، ونطاقاً أخضر على وسطه، ومسبحة طويلة تطوق عنقه، ويغني بصوت شجي:

امبارح العصر جاني الحب في قلبي
خايف أقول «آه» من اللي قاعدين جنبي

وامرأة قروية عجوز تزحف على مهل مع ابنتها الجميلة وتقول:

ـ «آه يا سيدة.. كلهم تخلوا عن عبد المتجلي المسكين ابن المسكين ابن المسكينة».

إجتمع مجلس القرية على عجل بصفة غير عادية، وتصدر الرئيس الحلبة، وسمى باسم الله والوطن، ودخل

في الموضوع مباشرة، قال وهو ينفخ دخان السيجارة في عصبية:

«تعلمون أن المواطن عبد المتجلي قد أساء إلى سمعة المجلس وإلى سمعة القرية بصفة عامة، وأنتم تعلمون أنه حتى وقت قريب كانت سمعتنا في السماء، فجاء هذا الجاهل - سامحه الله وهداه - وهدم ما بنيناه من مجد واحترام في سنوات كفاحنا الشعبي الطويل حتى شهد بكفاءتنا القاصي والداني.. لقد كان سيادة الوزير المحافظ أَمْس ثائراً. وأعلن بصراحة أننا تهاوناً مع عبد المتجلي منذ البداية، ولم نأخذ الأمر مأخذ الجد، فأخبرت سيادة المحافظ بأننا سبق ورفعنا تقريراً سرياً بشأنه، وأننا أصدرنا قراراً بفصله، لكن المحافظ اعترض على ذلك، وأوضح أن فصله في هذا الوقت بالذات لا يجوز، لكني شرحت له أن الفصل قانوني، وذلك لانقطاع عبد المتجلي عن العمل أكثر من شهر ونصف حيث إني لم أوافق بالفعل على الإجازة التي طلبها أول مرة وثاني مرة، ولم يكن أمامي - أيها الإخوة - حل غير ذلك حتى نحفظ ماء وجوهنا، وتظل قريتنا مناراً للصدق والإخلاص والتأييد لحكومتنا الرشيدة، ولمحافظنا الهمام..».

وقاطعه أحد أعضاء المجلس هاتفاً بصوت أجش:

ـ «يسقط الخونة..

الموت للخونة..
عبد المتجلي عدو الديمقراطية».

ورددوا الهتاف بصوت واهن، وعاد الرئيس يواصل خطابه الحماسي:

«.. إن بلدنا في حاجة ماسة إلى الاستقرار، وإن الأعداء يحاربون وحدة هذه الأمة، ويريدون النيل من منجزاتها، وأنتم تعلمون الخطوات الجبارة التي تمت على الصعيد الاقتصادي والزراعي والـ..».

فقال أخد الأعضاء مقاطعاً:

ـ «لكن يا سيادة الرئيس أنت تعرف من هو عبد المتجلي..».

ـ «إن عبد المتجلي الذي تعرفونه غير عبد المتجلي الحقيقي الذي ثبت بالدليل القاطع.. نعم القاطع أنه ضالع في التآمر، وقد أدلى باعترافات كاملة.. أرجو عدم المقاطعة حتى أنتهي..».

وواصل الرئيس حديثه:

«لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها.. صدق رسول الله.. ولو كان عبد المتجلي ذراعي لقطعته.. يجب أن نبرأ منه جميعاً.. وأقترح إرسال برقية فوراً بهذا

المعنى لسيادة المحافظ، ولوزير الداخلية، وللأمين العام للحزب.. كما أقترح أن ننشر في الصحف تأييداً للحكومة، ولرجال الأمن اليقظين بل والساهرين على أمن الوطن وسلامته وهذا أقل ما يجب..».

ورد رجل من أعضاء المجلس يكتم ألمه:

ـ «إنهم ليسوا في حاجة إلى تأييدنا، وعبد المتجلي لا في العير ولا في النفير.. ولنوفر هذا المبلغ لنرمم به ماسورة المياه المكسورة».

رد الرئيس:

ـ «أنا مصر، بل وأعتبره واجباً وطنياً مقدساً».

وأشعل سيجاراً آخر واستطرد:

ـ «وعليكم أن تشجعوا أهل القرية خاصة النظار والمدرسين وذوي الحيثية على إرسال برقيات مماثلة حتى نزيل ما علق باسم قريتنا من أوساخ..».

واستاء أهل القرية مما يجري، كانوا يعتقدون أن الواجب يقتضي التفكير أولاً في مساعدة عبد المتجلي حتى تنقشع محنته، وتظهر براءته، وأخذوا يتشككون في كل الإشاعات التي انتشرت، ويتناولونها بالتدقيق والتحليل، وأيقنوا أن مصدرها العمدة والخفراء ومن فوقهم من أهل

الإدارة، ورأى الحاج «إسماعيل المغربي» أن التقاعس عن نجدة عبد المتجلي سوف يورث القرية عاراً أبدياً، وقال على ملإ من الناس أمام محله: «حتى ولو كان عبد المتجلي مخطئاً أو معارضاً أو متطرفاً فإن القانون لا بد وأن يأخذ مجراه، وأن يجري التحقيق بطريقة عادلة.. ألا تقول الديمقراطية ذلك؟؟ ومن يدري قد يكون الأمر مجرد اشتباه، ثم يفرج عنه، عندئذ سندرك أننا قد ظلمناه، وقصّرنا في حقه.. وقريتنا على مدار تاريخها الطويل تتعاون في الأزمات، وفي الأفراح والمآتم، وليس لعبد المتجلي غير أمه العجوز وأخته الصغيرة.. فلا أقل من أن يتقدم بضعة رجال منا للذهاب إليه، وعمل ما يلزم، وإذا لم تذهبوا فسأذهب وحدي..».

قال شيخ المسجد:

ــ «سآتي معك يا إسماعيل».

رد عليه قائلاً:

ــ «إن مركزك حساس، وأنا أعرف القيود الوظيفية».

ــ «إذا لم أفعل، فلا قيمة لأي كلام أطلقه فوق المنبر، والمتهم بريء يا إسماعيل حتى تثبت إدانته.. والوقوف إلى جوار عبد المتجلي لا يدخل في نطاق الجريمة.. قسماً بالله لآتين معك، وليكن ما يكون..

السكوت على الظلم ظلم».

في الصباح الباكر خرج ما يقرب من خمسين رجلاً من أهل «أبو سالم» قاصدين المحافظة، كانوا يدقون الأرض بأحذيتهم السوداء الثقيلة التي تجمد على نعالها الطين، يتقدمهم الإمام بعمامته وجبته متكئاً على عصاه السوداء المعوجة، وإلى جواره الحاج إسماعيل، وبعض شباب المدارس، وكم كانت دهشتهم حينما تصدى لهم الخفراء عند الكوبري في المنطقة الشرقية، وأصدروا إليهم أمراً بالعودة إلى بيوتهم لأن التجمعات والتظاهرات ممنوعة طبقاً لقانون الطوارىء، قال الحاج إسماعيل في غضب:

ـ «إنها ليست مظاهرة».

قال شيخ الخفراء:

ـ «وماذا تسميها؟».

ـ «زيارة لسيادة المحافظ.. مسيرة سلمية..».

ـ «ممنوع يعني ممنوع.. إنها أوامر الحكومة..».

واحتد النقاش، وتجمع الناس، واستيقظ رئيس المجلس في غير موعده اليومي، واختلط النساء بالرجال بالأطفال، وقدم حضرة العمدة بنفسه على حماره «الحصاوي»، وسدد نظراته النافذة الناقمة صوب الجميع،

وأمرهم بالعودة إلى بيوتهم، وأخذ يصرخ فيهم غاضباً «هل أصبحتم مجانين مثل عبد المتجلي؟؟ أتريدون أن تذهبوا إليه لتشاركوه في البحث عن الونش؟؟ آه يا بلد جهلة.. وأنت يا سيدنا الشيخ.. هل هذه تصرفات عالم دين يعرف الشريعة، وأصول الإدارة، وطاعة أولى الأمر؟ وأنت يا حاج إسماعيل، أتريد أن تكون زعيماً على آخر الزمان؟؟ ماذا أصاب هذه البلد؟؟ لم أعد أفهم شيئاً!! عبد المتجلي مُتَّهم في مؤامرة.. والدولة مليئة بالمتهمين والمتآمرين.. وستأخذ العدالة مجراها.. أتعرفون ما معنى تجمعكم هذا؟؟ معناه أن تساقوا جميعاً إلى المعتقل، ثم تحالوا إلى نيابة أمن الدولة.. وحتى لو أفرجت عنكم النيابة فإن لوزير الداخلية الحق في رفض الإفراج.. بل يمكنه أن يفرج عنكم بضع ساعات ثم يعيد اعتقالكم مرة أخرى لشهور..».

وانطلقت صفارات الخفراء، ثم انهالوا ضرباً بالخيزران على الجميع باستثناء الإمام والحاج إسماعيل.. اللذين بقيا وحدهما يشهدان المسرحية المقذعة، واقترب منهما العمدة بعد أن انفض السامر وقال:

ـ «يمكنكما أن تذهبا وتتحملا التبعة، لكن لا تورطا الفلاحين معكما في أمر لا يفهمون أسراره..».

رمقه الشيخ الطوخي بنظرة مبللة بالأسى وقال:

ـ «أنت تعلم أننا لم نُـرِدْ إلا الخير».

قال العمدة في عناد:

ـ «ما تراه خيراً، قد يكون شراً من وجهة نظري».

ـ «العلم لأهل العلم يا عمدة».

ـ «ليس هذا علماً يا شيخنا..».

ـ «ماذا تسميه؟؟».

ـ «هــو سيـاســة.. إدارة.. ضبط وربط.. وأنت تخلط..».

ـ «أخلط ماذا يا عمدة؟».

ـ «تخلط الدين بالسياسة..».

أغمض الشيخ عينيه حين تدحرجت دمعة على الرغم منه، وقال:

ـ «رحمك الله».

أدار العمـدة رأس حماره إلى الخلف، وهـز رجليه، واندفع الحمار عائـداً بمن عليه وهـو ينهق، وتمتم الحاج إسماعيل ببيت من الشعر القديم:

تدخل الرجل المختص بالتأديب والتهذيب، وقال وهو يطوح سوطه في حركة هادئة رتيبة:

ـ «لعل هذه الجمهورية تنتج كميات هائلة من البترول، وفيها عملة صعبة.. وعبد المتجلي لا شك كان يبحث عن عقد عمل ليذهب إلى هناك..».

رمقه الضابط بازدراء وقال:

ـ «أغلق فمك يا ثور..».

ـ «العفو يا بك..».

وعاد الضابط إلى عبد المتجلي:

ـ «كنت دائماً تهاجم سياسة الدولة».

ـ «هذا صحيح..».

ـ «ألا تعلم أن ذلك يهدم الاستقرار؟».

ـ «إنه نقد بناء يا حضرة المحقق».

ـ «تلعب بالألفاظ».

ـ «بل أمارس حقي الديموقراطي».

ـ «جاك كسر حُقّك!!».

ـ «متشكر.. كل ما في الأمر أنني رأيت كل إنسان

إذا ذهـب الحـمـار بـأم عـمـرو
فـلا رجعت ولا رجـع الـحمـار

وقال الشيخ: «ومع ذلك فسوف نذهب إلى المحافظة فرادى.. ويجب أن نبلـغ الناس بذلك سراً.. حيث نلتقي هناك، وسوف أعد مذكرة لتقديمها للمسئولين».

(٨)

في لحظات الكرب والإهانة تواترت على رأسه الحليق نوبات من اليأس المحزن، وتزعزت قصور القيم والأحلام حتى أوشكت أن تنهدم فوقه، وتطمره من قمة الرأس إلى أخمص القدم، وتكتم أنفاسه اللاهثة حتى يفارق الحياة، لكن عبد المتجلي يقاوم في استماتة، إنه عدو اليأس، يأبى إلا أن يعيش حراً حالماً، حينما يموت الحلم، وتندثر الحرية، تصبح الحياة عنده بلا معنى، إنها الجنة الأرضية التي يحيا في رحابها سعيداً، برغم ما يصيبه من إحباطات ونكسات، ولا بد أن يبقى حياً، وأن يقاوم عوامل الضعف والفناء، عندئذ يشعر أنه ذو قيمة، وأنه إنسان، وأنه امتداد مشرق للآباء والأجداد العظام الذين استطاعوا مواصلة المسيرة آلاف السنين، ولم يفزعوا لموت أو عذاب أو هزيمة، هذا ما قرأه وآمن به، حتى استقر في يقينه، وأصبح من الثوابت التي لا تتزعزع، والشواهد التي لا تكذب، لكن الشيء الوحيد الذي يزلزل عقيدته هي تلك السياط التي يشوون بها جسده، مع الكلمات البذيئة التي تطفح من أفواههم دون خجل أو تحفظ، والأفكار الغريبة التي يحاصرونه بها، والمبررات العجيبة التي يسوقونها للتدليل على خطئه، والبرهنة ـ في نفس الوقت ـ على أنهم يعاملونه

المعاملة الصحيحة التي تتناسب مع جرمه وانحرافاته، إنها تجربة مرة توشك أن تغسل ما تجذر في مخه من قيم ومبادىء، وتكاد تمحو المقدسات العظيمة التي أفسح لها في كيانه مكاناً فسيحاً تحيى فيه وتنمو وتترعرع، إنه - لذلك - يعيد التفكير في كل ما آمن به من مسلمات، ويتصور مواقف جديدة، لكنه في أثناء ذلك يدرك عن يقين أن ما يتعرض له من قلق واضطراب مصدره الوحيد هو تلك الضغوط الرهيبة الهائلة التي يئن تحت وطأتها، ولذلك فقد انتهى إلى نتيجة لا يصح أن يتجاهلها، إن اتخاذ موقف جديد في هذه الحالة المؤقتة المضطربة سيكون خاطئاً، لأنه تحت ضغط وإكراه ويأس، والحالة الوحيدة التي يستطيع أن يقيم فيها أفكاره وقناعاته هي أن يكون حراً وبعيداً عن المجال المغنطيسي القوي، ثم ماذا هناك يستحق التغيير في موقفه؟؟ إنه لم يتآمر أو يشترك في تنظيم سري للإطاحة بنظام الحكم، ولم يحمل سلاحاً، أو يشرع في ارتكاب جريمة، هو رجل يؤمن بالله وكتبه ورسله، ويؤمن بحق الوطن في الحرية والعدالة، كما يؤمن بأن العلم والعمل هما الأساس للخروج من المأزق، وأن أعداء الشعب الحقيقيين هم اللصوص والمستغلين وحملة السياط، وهي قضايا يؤمن بها أي إنسان طبيعي حر على وجه الأرض.

قاس الزنزانة بنظراته الحزينة، ثم رجع إلى ما حاق به

من أذى بدني ونفسي..

لقد تسلخ جلده من شدة الضرب، وامتلأ بالكدمات والسحجات، لم يكن يدري على وجه اليقين لماذا هـذا العذاب كله، ضاقت نفسه ولم يعد يحتمل، نقلوه من مكان إلى مكان، وأخذ الرجال المحققون يتقاذفـونه ككـرة، لم يصدق أحد منهم أنه بريء، ولم يقتنعوا بموضوع الونش، حسبوه عضواً نشطاً في التنظيم.. أي تنظيم، لكنه ممثل بارع، داهية من نوع فريـد، من يدري فـربما يكـون هو الرجل الأول في التنظيم، من آن لآخر يجدون خيطاً يؤدي بهم إلى تنظيم جديد.

قال الضابط ذو الزبيبة السوداء في الوجه المضيء:

ـ «حدثنا عن جمهورية أفلاطون».

ـ «وما شأني بها؟».

ـ «يا عبد المتجلي وجدنا الكتاب في بيتك».

ـ «إنه مجرد أحلام.. يتحدث عن المدينة الفاضلة».

ـ «وهل هناك أفضل من مدنيتنا؟».

ـ «الله أعلم..».

ـ «يبدو أنك تدعو الشباب القيام بـانقلاب لإعـلان جمهورية أفلاطون..»..

يفكر في نفسه، وفي زيـادة دخله، ففكرت أنـا في زيادة دخــل الشعب، حتى ينكمش العجـز، ويعتــدل ميــزان المدفوعات. . من هنا أحسست بمسئـوليتي نحو الحفـاظ على التكنولوجيا وأدوات الانتاج.

قال المحقق:

ــ «الونش مرة أخرى؟؟ يا إلهي كم أنت ممل!».

ــ «هذا واجبي يا بك».

ــ «إنها مهمة الحكومة. .».

ــ «الحكومة تفكر في وضعها».

ــ «الشعب والحكومة شيء واحد يا لوح».

ــ «من قال ذلك؟».

ــ «الواقع يا عبد المتجلي».

ــ «لا أفهم. .».

ــ «ماذا تعتقد إذن؟».

ــ «أرى أن الحكومة في واد. . والناس في واد. . ولن يتحقق التلاحم إلا. .».

قاطعه المحقق مردفاً:

ــ «إلا بالكرباج. .».

أغمض عبد المتجلي عينيه حين طوقه السوط، لم يتأوه، ولكن تعبيرات وجهه الذي ازداد شحوباً وذبولاً كانت أقوى تعبيراً عن الآلام التي يعانيها:

ـ «فعلتم بي هذا كله وأنا بريء، ماذا لو كنت حقاً مذنباً».

ـ «هل نسيت أننا في حالة طوارىء؟!».

ـ «وكيف أنسى.. إنني أراها في كل مكان.. في كفر أبو سالم.. وفي خيزرانة حضرة العمدة الحاج إبراهيم صوان.. وفي تصرفات رئيس المجلس هناك.. وأراها هنا في غاية الوضوح.. نحن في بيوتنا أعلنا حالة الطوارىء قبل أن تعلنها الحكومة ونوافق عليها مجلس الشعب بالأغلبية الساحقة.. الطوارىء نعمة.. الحمد لله».

إبتسم الضابط انمحقق في سخرية وقال:

ـ «ما هي العلاقة التي تربط الونش بالطوارىء؟».

ـ «لولا الطوارىء لما ضاع الونش».

ـ «إشرح لنا».

ـ «الطوارىء كابوس في قلب الظلمة..».

ـ «والونش؟؟».

ـ «ضحية..».

ـ «تعلم يا عبد المتجلي أن الطوارىء جاء للحفاظ على الأمن الاجتماعي و. . ».

قاطعه قائلاً:

ـ «نعم. . والاستقرار يا سعادة البك».

ـ «تعرف إذن».

ـ «بالتأكيد، لكن المشكلة إنها وقد جاءت لإعادة الأمن المفقود فإذا بها تبدد وتضيع ما تبقى. . والونش يشهد. . ».

إضطجع المحقق، ومدّد رجليه وهو فوق المقعد «الدوّار»، وابتسم ثم جلجل ضاحكاً وقال:

ـ «إما أنك مجنون، أو مثقف معارض في منتهى الذكاء».

ـ «قالوا لي في القرية الجنون فنون».

هب الضابط واقفاً، واقترب منه، وأخذ يدقق البصر، ثم قال في عطف:

ـ «إجلس على هذا المقعد واشرب الشاي. . أنت رجل مخلص يا عبد المتجلي ولم أجد أحداً في شجاعتك في هذا المكان. . ».

شكره عبد المتجلي، ثم جلس وهو يقول:

ــ «ليست شجاعة، ولكني أحاول أن أعبر عما أعتقد..».

همس الضابط في هدوء غريب:

ــ «ألا تعتقد أن أفكارك هذه تشكل خطراً كبيراً؟».

قال في براءة:

ــ «أبداً. قد تساهم في ارتقاء وعي الناس، وتعبر عن واجب النصح لأولي الأمر..».

ــ «أتؤمن بالخلافة يا عبد المتجلي؟؟».

كان السؤال مفاجأة، لكنه قال:

ــ «أذكر بيتاً لشوقي».

ــ «ما هو يا شاعر الغبراء؟».

ــ «الدين يسر، والخلافة بيعة
والأمر شورى، والحقوق قضاءُ».

ــ «الله أكبر..».

شرب جرعات من الشاي، كانت الآلام تمضه، والأسى الممتزج باليأس يجعل الدنيا في عينيه المرهقتين لا قيمة لها ولا معنى. ولم يعد يخاف الموت، إذا دعاه

الداعي فسوف يهرع إلى السماء فرحاً، لقد آذوا شعوره، ومرغوا شرفه في التراب، ضربوه بأقسى مما تضرب به الحمير في القرية، بل إن الفلاح يشفق على حماره، وقد يخوض معركة مع جار له إذا تعرض لحماره بالضرب.. وهو هنا يضرب ويهان تحت سمع وبصر رجال الطوارىء الأوفياء، الذين أقسموا ألف يمين ويمين، وصرحوا ألف تصريح وتصريح، بأن الطوارىء لن تطبق إلا في أضيق الحدود، وضد تجار المخدرات والعابثين بالاقتصاد، والإرهابيين والمتطرفين.

«كلامك في مجمله يا عبد المتجلي يعني أنك ضد الدستور».

هتف في دهشة:

ـ «أستغفر الله يا سعادة البك!! كيف أعارض دستوراً يستمد شرعيته من شريعة الله؟؟ إنني فقط ضد الذين يخطئون في فهم وتطبيق الدستور..».

ـ «هل درست القانون؟».

ـ «في الواقع يا بك تمنيت ذلك، لكنهم رفضوا انتسابي للكلية، وطلبوا مني أن أذاكر الثانوية العامة مرة أخرى.. قلت لنفسي يا ولد يا عبد المتجلي القوانين في الكتب.. والكتب موجودة.. فلماذا لا تتعلم القانون

بنفسك؟؟».

تنحنح الضابط المحقق، ثم قال:

ـ «هل الحكومة كافرة يا عبد المتجلي؟».

ـ «لست من أهل الإفتاء..».

ـ «بعض إخوانك يكفرون المجتمع..».

ـ «وأنا لا أفعل..».

ـ «لماذا؟».

ـ «قد يوصف فرد بالكفر وفق شروط شرعية واضحة، أما تعميم الكفر على المجتمع فإنه ظلم..».

ـ «والجاهلية يا عبد المتجلي».

ـ «مشتقة من الجهل».

ـ «تعني عدم معرفة القراءة والكتابة..».

ـ «بعض الأميين على وعي أرقى من بعض حملة الشهادات العليا..».

ـ «تقصد أن الجهل مضاد للوعي».

ـ «بالضبط..».

ـ «وما هو مفهوم الوعي عندك يا فيلسوف».

ـ «لست فيلسوفاً، ولكن هناك الوعي الصحي.. والاقتصادي.. والسياسي.. والأساس هو الوعي الديني.. إنه إرادة أمة..».

ـ «قف هنا..».

انسكبت الدموع لأول مرة بغزارة من عيني عبد المتجلي، وأخذ يشهق بصورة فجائية، وقال في ضراعة:

ـ «ارحموني.. لقد تعبت.. أريد أن أنام..».

لم يثبت بالتحريات الشاملة أن عبد المتجلي اشترك في مظاهرة من المظاهرات، أو انضم إلى حزب من الأحزاب، إنه دائماً مع عامة الناس أولئك الذين يشكلون رأياً عاماً بعيداً عن التكتلات السياسية والحزبية، ومبادؤهم توليفة تلقائية تستجيب للأحداث والمشاكل بطريقة واضحة، تنعكس فيما يقولونه من نكات، وما يطرحونه من آراء، وليس من أهدافهم الدخول في الانتخابات، أو التسابق على المناصب، أو استغلال الفرص، وهم يعيشون في مجال محدود يضمن لهم العمل والرزق والستر، ينتظرون تموين البطاقات، ومرتبات آخر الشهر، ويفنون أعمارهم كي يعلموا أولادهم، ويدبروا أمورهم على نحو ما، وأفكارهم تخرج مع أنفاسهم إلى الهواء مباشرة.

كان الضابط يعتقد ـ بعد التحقيقات المبدئية ـ إن عبد المتجلي لم يرتكب أو يشرع في ارتكاب جريمة محددة، وإن كان يظن أن رجلاً مثله يحمل تلك الأفكار يخشى من خطره في المستقبل، وفكر في أن يطلب الإفراج عنه، لكن العقبة كانت آثار التعذيب التي تلون جسده وحتى وجهه، ومن الأليق أن يبقى تحت الرعاية حتى يتم شفاؤه، وأن يعامل معاملة طيبة، ويعطى غذاء جيد، ويعالج مما ألم به، ثم تؤخذ عليه الإقرارات اللازمة، ويعاد إلى عمله تحت الرقابة الدائمة، لكن طبيب الشرطة كان له رأي آخر يضاف إلى الآراء الأخرى، ولا يتناقض معها، فقد اقترح أن يحال عبد المتجلي إلى طبيب نفسي، حيث إن قضية الونش هذه تشي بأن المعتقل لا يمكن أن يكون في لياقة نفسية كاملة، وأنه مصاب ـ على الأرجح ـ بحالة من الأفكار التسلطية الخاطئة، وقد يؤدي العلاج النفسي إلى الشفاء.

إعترض الضابط المحقق وقال:

ـ «نحن في مباحث أمن الدولة لا نؤمن إطلاقاً بموضوع الأمراض النفسية بالنسبة لمنظمات العنف والإرهاب، لأنه إذا اعتبرنا أن التطرف مرض نفسي فلن يحاكم أحد على الإطلاق، وسوف يسفك الإرهابيون الدماء، وسينالون البراءة كما يحدث في أمريكا..

المتهمون في جرائم أمن الدولة أصحاء تماماً من الناحية النفسية، وقد تتغير نظرتنا بعد صدور الأحكام، حيث نسمح بعلاجهم نفسياً وهم يقضون فترة العقوبة، وقد ينقلون إلى المصحات النفسية والعقلية عندئذ..».

لكن رئيس القسم كان له رأي آخر وهو أن عبد المتجلي رجل غامض، ولا بد من مواصلة التحقيق معه، ومحاولة الكشف عن خبيئته..

* * *

عادت «رمانة» وابنتها «بدرية» إلى (الكَفْر) بعد عناء وشقاء، كانوا يحيلونها من مكان لآخر، والمحامي معها يروح ويجيء ويتصل ويستفسر، وبعد أيام ثلاثة لم يجدوا فائدة في البقاء بالقاهرة أكثر من ذلك، ولم يعد أمامهم سوى التسليم بما يأتي به الله، وقيل لهم أن عبد المتجلي سوف يفرج عنه قريباً، وسوف يجدونه وقد أتى إلى القرية فجأة، وفهم المحامي أن البحث أثبت براءة عبد المتجلي من أي تهمة سياسية..

عاد كذلك وفد القرية من المحافظة وعلى رأسهم الشيخ سمعان الطوخي إمام المسجد، والحاج إسماعيل المغربي، وقد ذهلوا عندما أخبرهم المحافظ أنه لا يعرف شيئاً عن المدعو «عبد المتجلي القصاص»، ولا يهمه أن يعرف، فلديه من كبريات الأمور ما يشغله عن هذه التوافه

التي تحدث كل يوم، كما أن المحافظ أنكر الأقوال التي وردت على لسان رئيس مجلس القريـة وسخر منهـا، ثم طلب من وفد القرية أن يتوجه بكافة أعضائـه إلى مباحث أمن الدولة بالغربية لتقديم التماساتهم، والإدلاء بـأقوالهم بأمانة، حول تصرفات عبد المتجلي وقضية الونش، مؤكداً لهم أن صراحتهم وصدقهم هو الأسلوب الوحيـد الممكن لحلِ الأزمة.

حينمـا عادت «رمـانة» ودمعتهـا على خدهـا، قدمت النسـوة من كل فـج يؤدين واجب المجاملة، كمـا جاءت زميلات بدرية، لكن الأمر الغريب أن «أشرف سليم» قدم هو الآخر، وكان قد فسخ الخطبة من قبل، وأبـدى أسفه وندمه، وتحدث بكلام كثير فهمت منه بدرية أنه ــ مهما كان الأمر ــ فلاح يعرف الواجب، ولا يمكن أن يتخلى عنهم في وقت الشدة، ورجاها أن تعود المياه إلى مجاريها.

إن صورة القرية اتخذت أضواءً وظلالاً جديدة لم تألفها من قبل، بدت اللوحة أذرعاً تتعانق، وعيوناً لهفى يقطر منها الحب والحنان، وعبارات وإشارات تترجم عن الود العميق والإخاء.. ولم يكن أحد يعتقد أن يفيض الحب نهراً دفاقاً على هـذا النحو من أجـل رجل بسيط، اتهمـوه بالجنـون والخرف والبلاهة..

لكن أم صابرين كان لها مسار آخر، لقد سألت عن

أشهر المحامين في السياسة، ومن ثم هرولت إلى مكتب فتحي رضوان المحامي الأشهر، ليرفع قضية مستعجلة ضد وزارة الداخلية.

* * *

(٩)

ما أعجب أمرهم، بالأمس حسب أن المعاناة انتهت، وأنهم على وشك حفظ التحقيق والإفراج عنه، لكنهم تركوه كالقرد الأجرب في ركن الزنزانة، «هنا لا قيمة لأحد» هكذا تحدث للصمت والظلام من حوله، فلم يسمع إلا نفثاتـه المحمومة، تذكر الصفعات على وجهه، كـل شيء يهون بعد ذلك، الذين يتحدثـون عن كرامـة الإنسان، وحقـوقه المقدسة بلهاء لأنهم لم يتعرضوا لمرارة التجربة بعد، تمتم «هنا المدرسة التي يمكن أن يتعلم فيها الإنسـان التطرف على أصوله إذا كان للتطرف أصول.. أنا شخصياً أعترف أنه تراودني خيالات رهيبة مجنونة.. يا إلهي!! ما عرفت ذلك الحقد الذي يعتمل في نفسي قبل ذلك.. أتمنى لو أن معي مثقـاباً كهـربائيـاً.. «شنيور» لأغـرزه في عيونهم وآذانهم وأمخـاخهم، ثم أجلس لأراهم يتعذبـون.. بـل ليتني أستـطيع أيضـاً أن أجدع أنـوفهم، وأصلم آذانهم، وأقتطع شفاههم بـالمقاريض، وأقُصَّ ألسنتهم وأرمي بهـا للكلاب الضالة.. مستحيل أن يحدث ذلك: لقد وضعوا عصـاة في دبري.. لمـاذا لا تنقض صاعقـة من السمـاء تحرقهم أو تداهمهم طير من أبابيل، ترميهم بحجـارة من سجيـل؟؟ أنا لا أعـرف بالضبط حتى الآن لمـاذا يفعلون

ذلـك.. ولمصلحة من؟؟ والكـارثة أنهم يضحكـون، ولا يخالجهم أدنى ندم أو أسف.. إنني أسمع الأنين من حولي بالغرف المجاورة.. الموت دفعة واحدة أسهل من ذلك، أمـا أن أموت ببطء قـطعة قـطعة... وتمـوت مشـاعـري وأحلامي فهذا فظيع!! لشـد ما أشعـر بالقـرف والاشمئزاز والغثيان حينما أتذكر أولئك الذين كانوا يتحدثون بـالأمس عن الحب والحـرية والعـدالة.. هـذه الأرض القاحلة لا يمكن أن تنبت إلا الشوك والحنظل.. إن التـطرف الذي يتحدثون عنه، ويتهمونني به لا يولد إلا في هذه الظلمة، ولا ينمو ويترعرع إلا في أعماق تلك الغابة.. قالت لي «أم العـواجز» أنهم قتلوا الحسين.. حفيـد أشـرف خلق الله.. وكل يوم يقتل الجاهلون أبناء الحسين.. لكن «الحجاج بن يوسف» لم يمت.. إن نسله يحكمون الأرض حتى هـذه السـاعة.. وإلى أن تقـوم الساعـة.. يهتفون ويصـرخـون «الموت للخونة»، لكن الخونة لا يموتون.. وشرف الشهادة يمنح للأطهار وحدهم، حتى لكأن الله يريد أن يأخذ أحبابه قبـل أن ينالهم التلوث، أو ينحـرف بهم الشيطان، ذلـك لأن الله يحب الشهداء.. والموت في هـذه الحالـة أعظم حب.. إنني أمد إليك يدي يا إلهي.. ألا تأخذني إليك؟؟ ألا تأخذني إليك؟».

قال له الضابط المحقق:

ـ «لعلك وعيت الدرس».

قال عبد المتجلي حزيناً:

ـ «أجل..».

ـ «ستعترف حتماً».

ـ «بماذا؟؟».

ـ «أنت أدرى».

ـ «أما زلتم تشكون في أمري؟».

ـ «الشك عصمة..».

ـ «بل هو في صالح المتهم».

ـ «هذه القاعدة لا تنطبق علينا هنا».

ـ «وماذا أفعل حتى تتركوني؟».

ـ «تعترف.. قل أي شيء..».

ـ «أقسم أنني لم أفكر إلا في الونش المفقود، وكنت أنوي..».

قاطعه في غضب:

ـ «لا تذكر الونش مرة أخرى. هذه قصة سخيفة لا تنطلي علي».

ـ «وإذا لم يكن لدى ما أقوله؟».

ـ «لـديـك الكثيـر يـا عبـد المتجلي.. حـدثنـا عن أصحابك.. عمن تعرف ميولهم.. طباعهم.. أخبارهم.. إتجاهاتهم السياسية.. قل.. تكلم بأي شيء.. المهم أن تتكلم..».

صمت عبد المتجلي برهة، ثم قال:

ـ أكتب عندك.. حضرة العمدة «إبراهيم صوان» لص محتـرف، وملفق ومـزور.. رئيس مجلس القـريـة منـافق ومختلس ومرتش.. أمين الحزب في بلدنا كل مؤهلاته أنه نسيب وقريب.. وأنه سمسار، ويبيع التمـوين في السوق السوداء.. شيخ الخفراء يتستر على اللصـوص ويقاسمهم غنائم الليل، ويشهد لصالحهم عندما تلتصق بهم التهم.. الحاج «إسماعيل المغربي» رجـل صالـح يحفظ الكتاب، ويؤنس الأحباب، والشيخ «سمعان الطوخي» يلتزم بأوامـر الأوقاف والداخلية، وخطبته في المسجد لا تخرج عن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكـر.. الحاجة «بياض» تخـرج أموالها بالربا ولا ترحم.. «سلامة» المغير يبيع المخـدرات جهاراً نهاراً هو وزوجه «ريحـانة» ولا يتعـرض له أحـد.. وحضرة العمدة يعـرف.. ورئيس المجلس يعرف.. وأنـا رفعت الشكـاوى إلى المسئولين، فـاقتـادوني إلى مـركـز

«زفتى»، فتكرموا عليَّ بعلقة ساخنة على قدمي.. لكنها أدنى بكثير جداً من العلقة التي تشرفت بها هنا..».

صرخ الضابط المحقق:

ــ «كفى.. لعنة الله عليك وعلى أهل بلدك أجمعين..».

نظر إليه عبد المتجلي نظرة تطفح كراهية، ثم قال:

ــ «هؤلاء هم المتطرفون في بلدنا..».

ــ «اسكت وإلا سحقت رأسك..».

خرج رجل من خلف خزانة الملفات وقال ضاحكاً:

ــ «هذا الحيوان كلامه صحيح..».

يبدو أن الضابط المحقق استسخف التعليق، لكنه لم يرد على زميله، فقد كان في حيرة من أمر عبد المتجلي الذي لم يستطع أن يجد دليلاً واحداً على انتمائه لإحدى الفصائل الإسلامية، كما لم يوفق إلى العثور على شاهد واحد يقدم قرينة على اتهامه، إن ذلك يعني أن التحريات كانت مضللة، وأن جهوده في الضغط عليه كي يعترف ذهبت هباء، وأخرجه من حيرته صوت زميله الذي قال في شيء من السخرية:

ــ «لعله شيوعي».

قاسه المحقق بنظراته الفاحصة وقال:

ـ «الشيوعيون لا وزن لهم ولا قيمة، هم مجموعة من أدعياء الثقافة المغرورين.. تجربتهم أيام عبد الناصر كانت فاشلة، وقضت عليهم..».

ثم التفت المحقق الضابط إليه وقال:

ـ «ما رأيك في الشيوعيين؟».

ـ «قريتنا ـ برغم كل النقائص التي فيها ـ تؤمن بالله، وليس لها علاقة بأي جهات أجنبية».

ـ «أليس فيها شوعي واحد؟».

ـ «لو حدث لما كان منا».

ـ «لماذا يا عبد المتجلي؟؟ ألا تؤمن بحرية الرأي؟».

ـ «أؤمن بحرية الرأي التي لا تصل لدرجة الكفر..».

ـ «هأنتذا ترمي الناس بالكفر».

ـ «لأن الشيوعية الحقيقية لا تؤمن بالخالق، والإسلام في الدستور هو مصدر التشريع..».

ـ «ونحن؟؟».

ـ «من أنتم؟؟».

ـ «الحكومة..».

ـ «أدعو لكم ولنفسي بالهداية».

ـ «هل لديك أقوال أخرى؟؟».

ـ «أكرر مطالبتي بالبحث عن الونش المفقود..».

وضحك الجميع بما فيهم عبد المتجلي، برغم الآلام التي تعتصر قلبه، وتلهب جسده.

ارتسمت سمات الجد على وجه عبد المتجلي وقال:

ـ «يقول سيدي وسيدك: من روّع آمنا روّعه الله يوم القيامة».

إرتجفت يد الضابط الممسكة بالقلم، وقال:

ـ «من سيدك؟؟».

ـ «المصطفى..».

أرتج على السائل، وابتسم المسئول، وتلعثم القائم إلى جوار خزانة الملفات، وانسابت دقات الجرس في هلع، وقدم كوكبة من المخبرين المكشرين عن أنيابهم، وأحاطوا بعبد المتجلي ينتظرون الأمر.

ـ «لا تمسوه بسوء.. وأكرموه».

تحير الرجال، فالكلمات هنا كثيراً ما يكون لها معنى مضاد، فعدم المساس يعني المساس، والإكرام يعني

الضرب المبرح، ويبدو أن الضابط في انفعاله نسي هـذه القواعد البديهية التي ساروا عليها منذ عشرات السنين دون تغيير يذكر، لكنه استوعب الموقف حينما سمع زعيم الزبانية يقول:

ــ «سوف يتلقى منا الكرم الزائد..».

أرغى وأزبد، وأمرهم بوضوح ألا يتعرضوا لـه بأدنى أذى، وأن يسمحوا له بالصحف والطعام الجيد والـذهاب إلى الحمـام وغسل مـلابسه، والتريض ساعـة في حوش المعتقـل. . وسـرعـان مـا تغيـرت السحنـات، وحلت الابتسامات محل التجهم والتحدي، وقال زعيم الزبـانية: «تفضل يا أستاذ عبد المتجلي».

تمتم «أستـاذ بعـد هـذا كله؟؟ وماذا بمصـر من المضحكات؟.. ولكنه ضحك كالبكاء».

لكنـه والحق يقال شعـر بإيقـاع جميل مفـرح لكلمـة «أستاذ»، إنها تعيد إليه آدميته وثقته الضائعة.. ثم إنها تفتح باب الأمل للنجاة، هذا إذا لم يغيروا رأيهم بعد ساعة، فيتحول «الأستاذ» مرة أخرى إلى كلب بن كلب «لطفك يا صاحب اللطف».

قال له أحد المخبرين وهو يقدم له جريدة الصباح:

ــ «تعلم أنني لا أضمر لك شراً».

حك عبد المتجلي قفاه، وقال وهو يبتسم في مرارة:

- «أعلم.. أنت تنفذ الأوامر..».

- «بالضبط..».

- «وأنك مثلي تماماً مظلوم».

- «وصاحب عِيال..».

- «هو ذاك..».

- «وأنك كنت تضربني وقلبك ينزف أسى».

- «سبحان الله.. إنك تتكلم بما في قلبي..».

سدد إليه عبد المتجلي نظرات جامدة، وقال:

- «ومع ذلك فلن ترد على جنة..».

قال المخبر في دهشة:

- «لماذا يا سعادة البك؟».

- «لأنك كنت تضربني بإخلاص».

قال المخبر في حزن:

- «لن تفهم لأنك لم تعش حياتنا..».

توضأ وصلى، غاب عن الوجود المادي من حوله، وانطلقت روحه إلى آفاق عليا عذراء يرتادها لأول مرة، لا

يعرف حلاوة الماء إلا من أهلكه الظمأ، ولا روعة اللقاء إلا من أمضه الحرمان، ولا جمال الحق إلا من أحرقه الظلم، أدرك بيقين ـ هذه المرة بالذات ـ أن ليس له نصير إلا الواحد الأحد، لأنه لا ينام ولا يغفل ولا يتخلى عن عبيده، ولن تحول بينه وبينهم أسوار، إن باب الله مفتوح دائماً، وليس عليه حراس مدججون بالسلاح، يطلقون الرصاص، أو يضربون الناس «بأذناب البقر»، ويسمحون لهذا ويمنعون ذاك، الباب الوحيد الذي يظل مفتوحاً دائماً. . تمتم: «وأنا رجل على باب الله». . يخيل إلى أن هذه هي الديموقراطية الحقة التي يحلم بها البشر من آلاف السنين. . إنها ليست لغزاً، وهي طوع يمينهم. . لكنهم في عمى عنها، يجرون وراء النظريات، ويمعنون في حفظ المصطلحات وتفسيرها وتحليلها، بذلك أصبحت طلسماً، وأصبح لها في كل أرض فلاسفة ومفسرون. .

قال له المخبر:

ــ «يقولون أنك تستطيع أن تحضر لنا عقد عمل من الخارج. .».

ــ «لا تتعلق بالأوهام يا عبد الله. .».

ــ «الحياة صعبة، والذرية كثرت، والحال كما تعلم. . وحياتنا كما ترى حرام في حرام، وظلم في ظلم. .».

ــ «إن صبرت نلت..».

ــ «عدني.. حتى أتوب».

ــ «قل يا رب..».

ــ «يا رب..».

ــ «قلها من قلبك يا أومباشي بدران».

ــ «يا رب.. من كل قلبي».

نام بعمق، بعد أن أكل وشرب، تذكر الأيام الحلوة فوق البيت المملوكي القديم مع بيومي في حي السيدة، حيث القمر الطالع والسماء الصافية، وأوراد الذاكرين، وأغاني المنشدين.. تذكر أم صابرين الصابرة ذات القلب الكبير.. البسيطة التي تشق طريقها في الصخر دون خوف.. آه.. كانت أياماً قليلة لكنها جميلة.. وعاد بذاكرته للمرة الألف إلى القرية الناعسة وسط البحار الخضراء، وفيها المآذن والأشجار الضخمة ومجالس الكلام.. تذكر أمه رمانة.. تأكل بدون أسنان.. ولا تعرف إلا العمل والدعاء ودموع الذكريات على الراحلين.. وهناك بدرية التي تتدفق حيوية وجمالاً وأملاً.. وتنتظر على أحر من الجمر العريس وخطاب القوى العاملة.. لا شيء يشوه الصورة الجميلة سوى مصاصي الدماء.. دراكولا وزبانيته من السماسرة واللصوص وتجار المخدرات ومحترفي

السياسة في تنظيم القرية، وذئاب الجمعية الزراعية التعاونية.. أليس من العجيب أن يدان كل رؤساء الجمعية السابقين، وتلحق بهم التهم أو الشبهات منذ إنشاء هذه الجمعية في الستينيات حتى يومنا هذا؟؟

«العابثون يمرحون» هكذا قال عبد المتجلي لنفسه، ثم استطرد «والأبرياء يتجرعون العلقم.. لكأن عذابات هذه الدنيا صورة مصغرة جدا لما سيحدث في جهنم.. إن ما يجري من ظلم مجرد ابتلاء من الله لحكمة يعلمها هو، وربما يكون منها أن يذكرنا بما ينتظر الظلمة والمتجبرين..».

لقد قرأ عبد المتجلي الكثير من الكتب، وظن أنه قد علم الكثير من ثمرات العقول قديماً وحديثاً، لكنه يصطدم كل يوم بأشياء لم يجدها في الكتب، وربما يكون قد قرأ قدراً عن الظلم والقهر والتعذيب، لكن انفعاله به كان بدائياً ساذجاً.. ربما بكى آنذاك وهو يقرأ، لكن سرعان ما تجف الدمعة.. وعندما وقع في وكر الذئاب وذاق بنفسه التجربة وجد الفرق هائلاً بين ما قرأ وما حدث له.. تذكر كلمات لبائع كتب عجوز «يا بني.. إن زبائني أغلبهم من الفقراء وطلبة العلم.. ملوك الانفتاح لا يقرأون الكتب.. ولا حتى رجال السلطة.. إنهم لا يحترمون الكلمة المكتوبة إلا إذا كانت أوامر صادرة من أعلى.. وهذه ليست كلمات تزيدك

معرفة.. لو قرأ أصحاب الملايين لأفلسوا، بل لما أصبحوا يملكون ذلك كله منذ البداية.. لكي تنجح في الحياة يجب أن تنشىء لنفسك علوماً خاصة بك.. الحياة الفاسدة تتمرد على المعرفة والقيم..».

يومها قال عبد المتجلي: «ليكن، فإن السعادة القُصْوى التي أشعر بها حينما أكتشف فكراً جديداً، والمتعة التي أنتشي بها بعد قراءة قصة أو قصيدة، لا توزن بالذهب.. هذا هو الثراء الحقيقي..».

كان موقناً أن الذين لا يقرأون محرومون، وإن كانوا لا يدركون ذلك الحرمان.

* * *

(١٠)

قضى بضعة أيام بدون إزعاج، عامله العسكر بروح ودية طيبة تبدو غريبة أو غير مألوفة، إنهم ينادونه باسمه، بل ويسبقونه بلقب أستاذ أو باشمهندس، ويبتسمون في وجهه، ويتبادلون معه النكات، وانتهت ـ كما يبدو ـ فترة التجريح اللفظي والإساءة البدنية، لكنه في قرارة نفسه كان يتوجس خيفة، إنهم هنا مثل زوابع «أمشير» قد يثورون فجأة، وتنقلب الأمور رأساً على عقب، لم يعد يثق البتة في أحد منهم، فهم بلا منهج واضح، ومتقلبو المزاج، ويظهر أنه ليس هناك من يحاسبهم على تفاصيل تصرفاتهم اليومية، ولا عن أساليب الضغط غير المشروعة، إن ما يهمهم هو المعلومات، وليس كل المعلومات، ولكن تلك التي تتفق مع أهوائهم وأمزجتهم، وكثيراً ما يصدرون قرارات ثم يتراجعون عنها لمجرد الظن أو ظلال من الشك الواهي، ولذلك فإن عبد المتجلي كان حريصاً، بمعنى أن يقتصد في آماله الحلوة، وسوء الظن وخاصة مع هؤلاء الناس عصمة، لقد رأى أنهم يلعبون بعواطف الخلق، ويتركونهم نهباً للدفع والجذب، والأمل واليأس، حتى تتحطم كل الحصون الداخلية، ويصبح المرء ألعوبة بين أيديهم، ويفقد مقومات ثباته وكرامته، ولقد رأى أيضاً ضحايا يركعون

لغير الله، ويتوسلون من شدة العذاب، كانوا مسخاً شائهاً. . وآخرين صمدوا حتى النهاية. . رأى العجب العجاب، ولم يكن يستطيع أن يميز جيداً بين ألوانهم الفكرية والسياسية، كان كل شيء غامضاً ومتشابكاً. الشيء الوحيد الذي يربطهم هو الاتهام بارتكاب جرائم ضد أمن الدولة.

لهذا بقي عبد المتجلي نهباً للقلق والترقّب، لم تعد المسألة مسألة ونش مفقود، لأن عبد المتجلي يشعر أنه قد يفقد نفسه هو الآخر، وعندئذ سيفعلون به ما فعلوا بالونش، ويقيدون الحادث ضد مجهول، مع أن الفاعل الآن معلوم مائة في المائة، لكن من يقرأ ومن يسمع ومن يشهد؟؟ فليس هنا صحف ولا إذاعة ولا تليفزيون ولا أعضاء من المعارضة في مجلس الشعب، ولا مندوبون عن النقابات أو الفلاحين أو العمال الذين يشكلون خمسين في المائة من المجالس. . . إن النوعية الوحيدة الموجودة في هذا المكان فئة واحدة لها وجهة نظر محددة، والقانون مجرد شرطي تحت الاستدعاء لقضاء مهمة محددة أيضاً. .

ومع ذلك فقد حالفه الحظ إذ جاءه الضابط المحقق وقال في سعادة:

— «مبروك يا عبد المتجلي. . لقد صدر أمر بالإفراج عنك. .».

أصبح الحلم حقيقة.. لم يستوعب الخبر جيداً، كانت الفرحة أكبر من أن يسعها قلبه الملآن بالمشاعر المتضاربة المائجة، لكنه سرعان ما استعاد توازنه، وابتسم كطفل، وتمتم:

ـ «شكراً يا سعادة البك».

ـ «لا شكر على واجب، لقد تبين لنا أنك مواطن شريف، نحن لا نظلم أحداً، لكن الظروف تضطرنا لاتخاذ بعض الإجراءات الضرورية حتى نكتشف الحقيقة..».

قال عبد المتجلي:

ـ «نعم الحقيقة..».

وأمسك الضابط بكتفه في رقة وقال في رجاء:

ـ «إنني آسف لما قد يكون آذى شعورك، أنت تعرف أوضاع البلد، وهذا يدفعنا لبعض التصرفات التي نكرهها في الواقع.. نعم.. لكنها ضرورية أحياناً، وهي لصالح المتهم المظلوم.. وأرجو أن تعدني بألا تذكر شيئاً عن ذلك أمام أحد.. ولا حتى زوجك.. إن هذا يسيء إلينا، ويضعنا في موقف حرج.. ثم إن أحداً لن يصدق مزاعمك.. أتفهمني؟؟

طأطأ عبد المتجلي رأسه، وكز على أسنانه، وقال

بصوت مبحوح:

ـ «أفهمك».

وقدم له الضابط سيجارة، لكن عبد المتجلي اعتذر وشكره، مؤكداً له أنه لا يدخن، وعاد الضابط يقول:

ـ «قد يحرضك أحد من رجال المعارضة على أن ترفع قضية تعويض وما إلى ذلك».

ـ «تعويض؟؟ عن ماذا يا بك؟؟».

ـ «عن فترة الاعتقال!! وعن الإيذاء.. إلخ، لكن هذا مضيعة للوقت، فضلاً عن أنه يسيء إلى العلاقة الحميمة بيننا وبينك.. ونحن في حالة طوارىء يا إبني.. هل تفهم..».

ـ «بالتأكيد.. التعويض هو إطلاق سراحي.. هذا يكفي».

ـ «والونش يا عبد المتجلي؟؟».

ـ «ماذا عنه؟؟ هل عثرتم عليه؟؟».

ـ «يجب أن تنساه تماماً».

ـ «كيف؟؟».

ـ «هذه أوامرنا..».

ـ «لا بد أن يعود الحق لأهله».

ـ «هذا واجبنا نحن يا عبد المتجلي.. هناك مسائل من صميم عمل السلطة، وليس من اختصاص الأفراد، والخلط بين واجبات الفرد والسلطة خروج على القانون والنظام..».

ـ «نحن والسلطة شيء واحد».

ـ «لا يا عبد المتجلي.. إنهما شيئان منفصلان».

ـ «فهمت..».

ـ «تعجبني..».

* * *

في المساء نودي على عبد المتجلي، وأخذوه في سيارة مغلقة عليها حراسة مشددة إلى مكان ما لا يعرفه، دق قلبه من الخوف، هو دائماً يشك في نواياهم، ترى متى تنتهي هذه الأيام السوداء؟ لكن ما رآه بدء ما بذرته الشكوك في رأسه من أوهام، لقد رأى أم صابرين بلحمها ودمها وإلى جوارها بيومي الرفاعي «درويش السيدة زينب» والأسطى حنفي المتولي السائق السابق للونش المسروق.

كما رأى مندهشاً شيخ الخلوة الرجل الطاهر الزكي، وتلقفته الأذرع الثمانية الدافئة، وأحاطت برأسه وعنقه

وجسده، لشد ما شعر بـالأمن والهدوء والاسـترخاء، حتى لتمنى أن يسترخي وينام على هذه الأذرع الحانية بعد أن طال به الأسى والسهاد، ولم يستطع عبد المتجلي أن يحبس طوفان مشاعره، فانهمرت الدموع بغزارة وأخذ يشهق بصوت عالٍ، وانتقلت العدوى إلى الأحباب القادمين لاستـلامه، فبكوا أيضاً، وتساقط الدمع من لحية شيخ الخلوة، لكن أم صـابرين زغـردت على الرغم من فيضـان عينيها، وابتسم الأسطى حنفي وهو يجفف أهدابه المبللة، أما بيومي فقد سيطرت عليه موجة دافقة من «الدروشة» وأخذ ينشد:

يا رايحين للنبي الغالي
هنيًّا لكم وعقبالي

ومع أنه كان يتطوح كما يفعل المجاذيب، إلا أن بريق الدموع كان يتلألأ في عينيه وعلى خديه..

قال شيخ الخلوة وهو يرفع يديه إلى السماء:

ــ «أدعوا بالنصر للسلطان».

ولم يدر أحد هل استجابوا أم لا، لكنه هو نفسه لم يجد الوقت للدعاء إذ كانوا على عجلة من أمرهم، وقال الشيخ:

ــ «لنرحل.. إن عبد المتجلي في حاجـة ماسـة إلى الراحة في بيته».

أوصلوه مع زوجه إلى بيته، ثم انصرفوا..

ألقى بجسده المنهك على أريكة خشبية في الصالة، وهو يحمد الله، ثم أخذ ينظر إلى كل ما حوله نظرات عائمة غائمة، هذه «سورة يّس» كما هي في إطارها النحاسي، وصورة تذكارية للزواج في إطار آخر، وعلى اليسار صورة ملونة «للونش» كان قد قصها من إحدى المجلات الأسبوعية، وسجادة قطيفة معلقة قبالته على الحائط وعليها صورة الكعبة المشرفة، وطبق بلاستيكي مرسوم عليه قبة الصخرة بالقدس الشريف، ثم هناك صورة صغيرة لمجاهد أفغاني بزيه الوطني يحمل مدفعاً رشاشاً..

جاءه صوتها:

ـ «هذا يوم عيد.. لقد أعددت لك زوجين من الحمام المحشو».

توجه بنظراته الوالهة إليها وقال:

ـ «لقد شبعت منذ أن رأيتك».

ـ «أعرف أنهم يجوعون المعتقلين..».

ـ «كان الله يطعمني ويسقيني».

ـ «لكني أراك ازددت نحافة..».

ـ «الهموم ريجيم غذائي..».

ـ «ريجيم الندامة والحسرة..».

ـ «أين صابرين؟؟».

ـ «سألت عليك العافية.. هي في إجازة عند جارتنا..».

ـ «وأخبار أمي..».

ـ «كلهم بخير.. خجلت أن أذهب إليهم وحدي لأول مرة..».

ـ «الواجب أن أذهب إلى البلد على الفور..».

ـ «بالطبع.. لكن لا بد أن تستريح يوماً أو يومين..».

كان يظن أنه سوف ينام دهراً ليعوض أيام الألم، وليالي الأرق، لكنه أفاق بعد ساعتين كأنشط ما يكون، أطل من الشرفة إلى العالم النائم الساكن، أطربه جمال السكون والسلام المترامي بين السماء والأرض، شعر بأنه في نعمة كبرى يمتصها كالرحيق الحلو، فتسري في كل ذرة من كيانه، إنها نشوة من نوع غريب، إنه يتمازج بالعالم من حوله ويذوب فيه، ويناجيه في حب فريد، ربتت أم صابرين على ظهره من خلفه في حنان الأنثى، نظر إليها في ضباب الضوء الخافت، بدت له كملكة جمال بابتسامتها العذبة،

وروحها النابضة، ونفذ عطرها إلى أنفه، استشعر في داخله شوقاً عارماً من نوع خاص، أسلم قياده لهذه العاطفة الجياشة. . قديماً قرأ بيتاً من الشعر.

لا يعرف الشوق إلا من يكابده
ولا الصبابة إلا من يعانيها

الألم مرير، لكنه مفيد، والحرمان شقاء لكنه يعمق معنى الارتواء والشبع الحقيقي، لم يكن ليعرف نفسه ويعرف العالم على هذا النحو الجديد إلا من خلال تلك التجربة القاسية، ويبدو له الآن أن المعاناة الصعبة هي الوسيلة الأقوى للدخول إلى دنيا المعرفة والحقائق والتذوق الأصيل، إنه يكتشف مجاهل كانت مطمورة في ذاته وفي الناس والحياة، في الطفولة كان يخاف الذئب والضباع والغولة بدون أن يرى أيًّا منها، وقديماً حدثوه عن «السماوية». . نعم إنه يتذكر ذلك، حينما بكى طويلاً لكي يسمحوا له بالذهاب إلى مولد «سيدي أحمد البدوي» في طنطا، قالوا له إن ذهبت وحدك فسوف يتلقفك «السماوية» من هم السماوية، هم أولئك الذين يخطفون الأطفال ويذبحونهم بعد أن يجرعوهم «السم»، ثم يعتصرون دماءهم ويجمعونها في زجاجة يشربها اليهود، أو يعجنون بها فطير العيد. . يومها استولى عليه الرعب القاتل، وظل ذلك الإحساس يخالطه حتى بعد أن كبر وبلغ سن الرشد،

إنه يرتجف بدون أن يدري كلما سافر إلى طنطا.. إن ظلالاً من الرعب القديم لم تزل تعبث بخياله برغم مرور السنين وسذاجة الخرافة..

إن ذهنه أصبح مسرحاً لآلاف الصور والذكريات، تحاصره وتطارده، ترى هل هذا هو الخلل الذي يزعمون أنه من سمات الخارجين من السجن؟؟ يجب أن يشغل نفسه بأي شيء آخر، وعليه أن ينسى أو يحاول أن ينسى تلك الأيام الصعبة المريرة، وينطلق إلى أيام جديدة، وستكون البداية السفر إلى كفر أبو سالم، ليرى أمه وأخته والناس الطيبين هناك، ولا شك أن أهل (الكَفْر) قد وجدوا من مأساته مادة جديدة للثرثرة.. لشد ما اشتاق إلى اللقاء، وإلى «الكلام» مع أهل «كفر كلام» الذين ينفسون عن أحلامهم وهواجسهم من خلال القناة الوحيدة التي يمتلكونها، ويبثون فيها همومهم، ويؤكدون ذاتهم، من المهم جداً أن يتكلموا.. وإلا انفجروا.. والكلام لا يكلفهم شيئاً..

* * *

قال عبد المتجلي وهو ينظر إلى السماء، ويحرك رأسه في رتابة يمنة ويسرة:

ـ «لو كان الونش رجلاً لدخل الجنة.. نعم.. لماذا؟

لأنه رضي رضاء تاماً بتسخير الله له لخدمة البشر أولاً، ولأنه يطيع الأوامر الصادرة إليه بخصوص العمل، ولا يشكو أو يتبرم.. والعمل عبادة، هذا ثانياً، ولأنه لا يأكل أكثر من القوت الذي يكفيه لا يعرف الشراهة، ويتمرد على التخمة، هذا ثالثاً، ولأنه مطيع بريء كطفل لم يزدهه الكبرياء أو الغرور.. بسيط، متعاون، ويحمل الأعباء عن الإنسان.. ولو بقيت أستطرد في ذكر محاسنه لما انتهيت أبداً.. يرمونني بالجنون لأني أبحث عنه.. الجنون هو أن نتركه يضيع.. إن بيني وبينه علاقة عشق من نوع خاص.. أذوب فيه كما يذوب فيّ.. يخيل إلي أن الحديد الذي يجري في دمي من صنف حديده.. ماذا لو لم يكن حديده في دمنا، إذن لأصبنا بالأنيميا..».

قالت أم صابرين متحسرة:

ـ «لو أحببتني كما تحب الونش...».

قاطعها قائلاً:

ـ «أنت والونش شيء واحد».

ظنته يعرض ببدانتها، فقالت محتجة:

ـ «إن بدانتي من النوع الرشيق».

إبتسم وقال:

ـ «الحب لا يوزن بالكيلو، فهو ليس مادة».

ـ «وأنا..».

ـ «حلوة.. رقيقة.. قلبك كبير أخضر كحقول الحنطة الخضراء في بلدنا.. أشعر فيه بالأمن والحب والجمال..».

وبعد فترة صمت قال:

ـ «لم أكن أبحث عن قطع من الحديد.. أنا أبحث عن روح».

قالت مداعبة:

ـ «طلعت روحك..».

ـ «العقل.. الإيمان.. الجمال».

قالت وهي تلقي برأسها على صدره:

ـ «الثلاثة رهن إشارتك..».

ضمها إليه في حنان، وقبّل وجنتها وقال:

ـ «يا ظلي الحنون».

فاجأته بقولها وهي تقرصه:

ـ «العادة انقطعت..».

لم يفهم، أخذ يدير الكلمتين في رأسه، ويحاول أن يستشف معنى ما تقول فعجز، وقال:

ــ «أية عادة؟؟».

ــ «بعد بضعة شهور سألد لك ونشأ صغيراً جميلاً.

دق قلبه، أفاق من أحلامه، نظر إليها مستطلعاً، جاءه صوتها:

ــ «قلبي يحدثني بأنه سيكون لصابرين أخ».

ــ «كيف؟؟».

ــ «إنه أمر يحدث للناس كل يوم..».

إجتاحت قلبه موجة عارمة من الفرح، أخذ يضحك في هستيرية، ويضرب كفاً بكف، أفكاره تبعثرت، تلاشت كل الصور القديمة، وذابت مرارة السنين، ووثب إلى خياله وجه صغير.. حلو.. يمص أصابعه..

* * *

قال له شيخ الخلوة في حي السيدة:

ــ «تعبت كثيراً يا ابن رمانة».

ــ «أجل يا شيخنا..».

ــ «أما آن الأوان لتنضم إلى رُكبنا».

ـ «ليس في استطاعتي».

ـ «لماذا يا عبد المتجلي؟؟».

ـ «الخلوة تخنقني، وضوؤها الخافت يُغشي بصري».

ـ «إنها أرحب من كل الدنيا، والنور في القلب».

ـ «وأنا ابن طريق يا شيخي الجليل، والصوامع مرتبطة في ذهني بالزنازين.. معذرة.. في المدينة مائة ألف طريق وطريق.. سأمشي في عز الظهر، وفي قلب الظلمة.. أدق الأرض بأقدامي.. إذا أنا حصرت نفسي في الصومعة، فمن يزرع الأرض، ويبحث عن «الأوناش» المفقودة.. إن لله عباداً اختصهم بقضاء حوائج الناس.. هكذا قال المصطفى.. كما أتعشق أن أكون منهم..».

ـ «ستعاني وتعاني..».

ـ «إنه قدري».

قال الشيخ ووجهه يشرق بالسعادة:

ـ «قد عرفت. فالزم».

عرج إلى الشارع المكتظ بالخلق، كل شيء على حاله، صياح الباعة، وغمزات الشباب، وعطر النساء، وهمزات الشياطين، وابتسامات الملائكة، ومرح الأطفال، وتسابق السيارات والحافلات، وباعة الصحف يثبون

كالبهلوانات، والأونـاش يعلو ضجيجها، وأغـاني المذيـاع والكاسيت، وعربات اليد الصغيرة تتراكم فوقها تلال الكوسة والطماطم والبـرتقال والجـرجير، وأصـوات ضارعـة «لله يا محسنين»، ونداءات ملحاحة «كله بربـع جنيه.. قبـل ما يلعب.. الله لله يا بدوي جا باليسرى..»، وأحد الحـواة يتوسط حلقة من الناس، ومعه قرد مطيع يتواثب، ومجذوب يصرخ «وحّدوه.. حي لا يموت.. نظرة يا أم العواجز».

وعلى الـرغم من الضجيـج فقـد كـان عبـد المتجلي يستشعـر مذاق السعـادة.. لقد خـرج من القمقم.. إنـه يستمتع بالحياة.. يبعث من جديد حياً يرزق، يستطيع أن يمارس هواية السير، له مطلق الحـرية أن يميـل يساراً أو يتجه يميناً، يبطىء أو يسرع، لم يعد يشعر بـذلك الثقـل الذي عانى منه بين الجدران الأربعة.. كل شيء يمضي.. ويذهب مع العمر الذي ذهب.. كل لحظة جديدة، لا آفة للجديد إلا أن نكبله بأحزان الأمس ومآسيه.. عين العقل أن يحاول تطبيع علاقاته مع الدنيـا.. إن كلمة «تـطبيع» في أصلها جميلة، لم يتضايق منها إلا بعد أن وردت في اتفاقية «كامب ديفيد».. إنهم يشوهون الوجه الجميل للكلمات..

* * *

(١١)

سادت البلدة موجة عارمة من الفرح والدهشة عندما سرى نبأ قدوم عبد المتجلي، وغمرت السعادة قلوب الأهالي نساءً ورجالاً وأطفالاً، حتى بدا الأمر وكأنه ظاهرة اجتماعية غريبة في حاجة إلى الدراسة والتحليل، فعبد المتجلي ليس بالشخصية الكبيرة الهامة في القرية إذا قيس بالمقاييس العصرية المتعارف عليها اجتماعياً وسياسياً، فضلاً عن أن القضية التي ينافح من أجلها قضية - تبدو للكثيرين - مثيرة للضحك والسخرية، ثم هناك موضوع زواجه المفاجيء الذي يفجر الكثير من علامات الاستفهام، وكذلك حادثة القبض عليه التي أخافت البعض، وثبت الشجاعة في قلوب البعض الآخر، وهناك أيضاً الإفراج المفاجيء عنه، وهو في القرية يعني الانتصار والنشوة حتى بالنسبة للقتلة الذين سفكوا الدماء. وتباينت التعليقات هنا وهناك في أنحاء «كَفْر أبو سالم» المغرمة بالكلام والتعليقات والفلسفة بمفهومها الشعبي.

قال حضرة العمدة عندما تأكدت له هذه الظاهرة:

- «إن أهل البلدة مجانين مثله.. وجهلاء أيضاً، ولا يقدرون العواقب.. وعندما يصل عبد المتجلي ويروي لهم

ما أصابه فسوف يتراجعون عن حماستهم وفرحهم.. والناس يكرهون الحكومة، ويجرون وراء كل ناعق حتى ولو قال ريان يا فجل».

أما أطفال القرية، فقد كانوا يجرون هنا وهناك، ويرددون أناشيد الكتاتيب والمدارس، وكأنهم في مهرجان «عيد الثورة» في الزمن الغابر، وكانوا يقولون:

ـ «عم عبد المتجلي سيروي لنا حكايات جديدة».

أما إمام المسجد، فقد ابتسم في وقار، ومسح على لحيته البيضاء، وانبعث من عينيه نور طاهر نقي وقال:

ـ «ربّ أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره هكذا يقول المصطفى.. وأرى أن عبد المتجلي شاب نقي السريرة، صادق النية، صلب الإرادة، ويريد أن يحرك السكون، وينفخ الروح في الموتى الأحياء..».

ووقف الحاج «إسماعيل المغربي» بعد صلاة العصر أمام دكانه الصغير الخاص ببيع القماش، وحاول ـ دون حاجة أن يعدل من وضع عمامته الشاهقة البياض على رأسه الحليق وقال:

ـ «الصوت القادم من البرية أزعج سكان القصور.. إن صمامات النفاق قد تدمرت في قلبه.. ولهذا فإن أحاديثه

الفتية تتدفق كالسيل العرم. . حقاً ـ كما قالوا ـ إنه يؤذن في «مالطة». . لكن هناك من يسمعون ويعون. . لو عاش أبو زيد الهلالي في زماننا هذا، لما فعل أكثر مما فعله عبد المتجلي. . ».

وهتف الحاج إسماعيل بأعلى صوته وكأنه في تظاهرة انتخابية:

ـ «عاش عبد المتجلي. . عاش عبد المتجلي».

وكم كانت دهشته عندما تقاطر حوله الأطفال، وأخذوا يرددون الهتاف في سعادة، وهو يكرر سعيداً هتافه، والأطفال من ورائه، بل وبعض الرجال أيضاً، مما جعل زوجه تقف على عتبة الباب، وتقول في حرج:

ـ «ماذا جرى يا حاج إسماعيل؟؟ هذا لا يليق».

(رمانة) أم عبد المتجلي كان كل اهتمامها منصباً على إعداد مأدبة رائعة لولدها، لتعوضه عن أيام الجوع والحرمان في الغربة وفي المعتقل، هي لا تفهم شيئاً يذكر عن السياسة والأوناش وجرائم الرأي وحالة الطوارىء المعلنة ومراكز القوى والقطط السمان، لكنها تهتم بالدرجة الأولى بوجود ابنها إلى جوارها، والاطمئنان على طعامه وشرابه، أما موضوع زواجه فقد أصبح لا يؤرقها، لأنه من شأنه هو، فضلاً عن أنه لم يكبد الأسرة أية أعباء إضافية، وقالت

(رمّانة) لابنتها كلاماً كثيراً حول سعادتها بعودته سالماً، وقررت أنها سوف تلف ذراعيها حوله، وتتشبث به، ولن تتركه مرة أخرى ليقع فريسة الانتقام والغدر، وهي تؤكد أن ولدها عبد المتجلي لم يزل صغيراً، وأنه قليل الخبرة في الحياة، وأن الشهادة التي نالها من المدرسة لا تعني نضجه، فهم يعلمونه دروس الحساب والإملاء، لكنهم لا يعلمونه كيف يصبح رجلاً واعياً في هذه الدنيا الغدارة..

* * *

أصرت «أم صابرين» على أن تكون سيارة الأجرة التي ستنقلهم من القاهرة إلى القرية سيارة فخمة من نوع المرسيدس، وأن تزينها بالأعلام والأوراق الملونة، بل إنها اشترطت أيضاً أن يكون بالسيارة راديو مزود بتسجيلات كبار المطربين وخاصة ما يتعلق بالأفراح، لكن عبد المتجلي قال لها أنه يفضل القرآن بصوت الشيخ «محمد رفعت»، وإذا كانت هناك ضرورة ملحة، فلا بأس من تسجيلات الشيخ «النقشبندي»، ويمكن أيضاً سماع المطربة الشعبية «خضرة» وهي تشدو بملحمة «أيوب»، لكن السيارة الأنيقة عندما وصلت إلى مدخل البلد، كان صوت المغني المرتجل «محمد طه» يشدو بأغنية «الليلة ليلة فرح».

وتجلى «عبدالمتجلي» بعد خروجه من السيارة، كالقمر هكذا ظنوه: كان شاحب الوجه، منبسط الأسارير، وأنهار

السعادة تتدفق من عينيه، وكاد يغرق في طوفان من الجماهير التي زحفت من الحقول والبيوت والوحدة المجمعة، وكان الضجيج يصم الآذان، والحماسة ترتسم على وجوه الفقراء المغبرة، والنسوة يزغردن، والأطفال ينشدون، ولم يدر عبد المتجلي من الذي انتشله من فوق الأرض، ورفعه عالياً إلى الأعناق، كان مسحوراً بالمشهد الذي لم يخطر له على بال، فرفع يديه في السماء والدموع تهطل من عينيه، ونادى بأعلى صوته:

ـ «الله أكبر.. الله أكبر».

فتردد صدى النداء القدسي الخالد نقياً أبياً شامخاً في أجواء القرية الصغيرة كأحلى سيمفونية في الوجود..

وتمايلت الأشجار مع نسمة حانية، وكأنها توحد الله في حلقة ذكر، ومدت الديكة والطيور والبهائم أعناقها وكأنها تستطلع ما يجري، وحلقت الحمائم البيضاء في السماء الصافية الزرقاء، ولكن لم يكن يأبه لذلك أحد، كانت الأنظار كلها متجهة إلى عبد المتجلي، وفي وسط هذا الفرح الصاخب انطلقت رصاصات ثلاثة، أخرست الألسن، ونشرت أجنحة الصمت الرمادية، وتلفت الناس، وكذلك عبد المتجلي، ترى ماذا جرى؟؟ وشق الصفوف موكب حضرة العمدة «الحاج إبراهيم صوان» يحيط به كوكبة من الخفراء المسلحين بالعصي والبنادق، ويلتحق بهم ثلاثة

من الغرباء الذين لا يعرف عنهم أحد من أهل القرية شيئاً.

قال العمدة بصوته «البومي»:

ـ «يا أهل البلد.. هل نسيتم أن التجمهر ممنوع بنص القانون؟ إن أمن البلد فوق كل اعتبار.. والحكومة لا تسمح بهذه الفوضى.. وقانون الطوارىء موجود.. لقد أطلقنا الرصاص في الهواء كتحذير.. ونحن على استعداد لأن نضرب في «المليان» إذا... لا شك أنكم فاهمون.. ورجال الأمن واقفون هنا إلى جواري.. ولديهم أوامر صريحة.. الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها..».

ثم التفت إلى إمام المسجد وقال:

ـ «ألست معي فيما أقول يا شيخنا الجليل؟؟.. وأنت يا حاج إسماعيل إن مثلك لا تغيب عنه هذه الأمور».

ثم عاد يخاطب الجمهور مرة أخرى:

ـ «إنكم تجلبون الضرر لعبد المتجلي نفسه بهذه التصرفات.. فالحكومة قادرة على أن تعيده إلى المعتقل مرة أخرى إذا كان إطلاق سراحه يتعارض مع الأمن العام..».

ونظر عبد المتجلي حوله، تجمدت النظرات، وتقنعت الوجوه بأقنعة من السكون الغاضب، وأغلقت الأفواه، ونظر

الأطفال في خوف، لكن صدى التكبير ما زال يتردد في الآفاق، إنهم يسمعون في داخلهم، بل وفي آذانهم برغم الصمت، السيمفونية الإلهية لم تزل تعزف ألحانها القدسية.

رفع عبد المتجلي يمناه عالياً وقال وسط السكون:

ـ «أيها الناس.. الأفراح في القلوب.. وألسنة الخلق أقلام الحق.. لقد كرمتموني بأكثر مما أستحق.. والجزاء عند الله.. وأنا ضعيف عاجز عن الشكر.. فلننصرف احتراماً للأمن.. وللطوارىء..».

تمتم العمدة:

ـ «عين العقل..».

أما سائق التاكسي، فقد ضغط على زرار الراديو.

وانطلق صوت الشيخ محمد رفعت الملائكي يردد:

ـ ﴿طه. ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى..﴾.

كان الصوت الندي الرقراق عالياً، وكان الغالبية من الناس يبكون.

لقد طغت الأحداث المثيرة، ونسي الناس «أم صابرين» التي ظلت قابعة في مكانها متلفعة بشال وردي اللون، غطى رأسها ووجهها وكتفيها، وزادها تألقاً وجمالاً،

ومع ذلك فقد بدت محتشمة وقورة، وعندما عاد عبد المتجلي إلى مقعده في السيارة وجدها تبتسم في هدوء، وهمست:

ـ «إنني أغار منهم.. حبهم لك فاق كل حد».

ومضت السيارة بتوجيه من عبد المتجلي، حتى بلغت ناصية الحارة الضيقة الطويلة التي يستكن بيت أسرته فيها، ولم يكن في الإمكان أن يجد السائق متسعاً لسيارته في هذا الزقاق، وظهر عبد المتجلي وزوجه، بينما أخذ السائق يفك الأربطة والحبال حتى يحرر الحقائب والقفف الموضوعة فوق الشبكة، وهرول الجيران من كل حدب، وكانت غالبيتهم من النساء والأطفال، وبينهم العجوز «رمانة» وابنتها، وانهمرت الزغاريد، وسمعت أم صابرين كلمات جميلة «مبروك يا عروسة.. يا صلاة النبي.. يا حلاوة.. والله قمر يا جماعة قمر. يا نهار السعد..».

وتزاحمت الأجسام، عشرات القبلات تفرقع على خد أم صابرين ورأسها، والأذرع تعتصرها وهي تحتضنها وتعانقها، وكأن النسوة يعرفنها منذ عشرات السنين، شعرت أم صابرين بالارتياح والدفء والخجل، كل شيء يمضي بطريقة عفوية بسيطة جميلة، بعيداً عن التصنع والرياء، وتشبثت رمانة بولدها عبد المتجلي، خيل إليها أنه لم يزل طفلاً، تناست شاربه ولحيته وعوده القوي التركيب، كان

أضخم منها لكنها تصورته طفلاً رضيعاً بين يديها، كانت تبكي وتقول كلاماً كثيراً غامضاً، لم يفهم الحاضرون والحاضرات سوى كلمتين «ولدي.. حبيبي».. أفاقت رمانة من حلمها أبعدت رأسها قليلاً وهي ممسكة كتفيه بيديها العجفاوين.. نظرت إليه بإمعان.. كان بصرها ضعيفاً هرماً.. ابتسمت والدموع في عينيها، ثم رمت برأسها فجأة على صدره الحنون، وأخذت تمرغها وكأنها تغسل تلك الرأس من الأحزان والهموم والأوهام في ينبوع الحب الطاهر.. قالت بسعادة:

ـ «حمداً لله على سلامتك يا بك..».

ضحك عبد المتجلي في شيء من السخرية:

ـ «بك؟؟ ما هذا يا أمي؟؟ بَلَا بك بلا قرف..».

ـ «ما في بك أحسن منك..».

ـ «قولي يا باسط..».

والتفت عبد المتجلي إلى أم صابرين وقال:

ـ «قبلي رأسها ويديها.. ثم ادخلي برجلك اليمنى..».

وتغنت النسوة بأغنية شعبية شائعة في الأفراح.. كن يرددن:

«هاتوا الذهب وكيلوا بالكيلة.
ماهش خسارة في بياض الليلة..
هاتـوا الذهب وشعتروا ع الأرضي
ماهش خسارة في بياض العرضي».

واحمر وجه «أم صابرين»، وابتسم عبد المتجلي حتى بدت نواجذه وقال في مرح:

ـ «لا ذهب ولا فضة.. الحمـد لله على الستر».

وأحضرت إحداهن «الطبلة الصغيـرة» وأخذت تـطبل عليها وتغني:

ـ «إحنا «السوالمة» وكلامنا مشي
ونسيّب المحابيس من بيت البشي».

وقهقه عبد المتجلي وعلق:

ـ «إنتهى زمن الباشاوات والألقاب.. نحن في زمن جديد.. ولا داعي لذكر كلمة «محابيس» يا جماعة.. لأنه يتنافى مع الإرشادات الأمنية.. كنت فقط في ضيافة إخوة لنا.. وأكرموني غاية الإكرام..».

وفرشت الحصير، وجلست أم صابرين عليها إلى جوار عبد المتجلي من ناحية وأمه من ناحية أخرى، ولم تكد تمر بضع دقائق، حتى تدفق الخير، فقد أقبلت الجارات يحملن

عـدداً من صواني الـطعـام، فيهـا مـا لـذ وطـاب احتفـاء بعبد المتجلي وزوجه التي قـدمت البلد لأول مرة. . حمـام محشـو. . وديوك. . وبط. . وأرانب. . «مـا هـذا كله. . صـدق رسـول الله ﷺ: «الخير فيّ، وفي أمتي إلى يـوم القيامة. .».

ومال على أذن أم صابرين هامساً:

ـ «أترين هذا التأييد الشعبي الساحق؟؟».

نظرت إلى عينيه محذرة وقالت:

ـ «تذكر يا عبد المتجلي أنه لا كلام في السياسة. .».

ـ «البلد فـيهـا حـريـة وديـمقـراطـيـة وأحـزاب معارضة».

ـ «لم ينفعك أحد بشيء. .».

ـ «إن ما يهمني هو. . .».

قاطعته قائلة:

ـ «الأكل أولاً. . إنك لم تذق طعاماً منذ الصباح. .».

* * *

في اليوم التالي استدعاه حضرة العمدة، وحادثه برقة لم يألفها فيه، وشرح له كيف أنه قد ورث هذا المنصب عن آبائه وأجداده، وأن الأسرة طوال عشرات السنين قد بذلت الكثير من مالها ودمائها، حتى تحتفظ بمنصب «العمدية»،

وأن عبد المتجلي بتصرفاته السابقة قد أساء إلى وضع العمدة وجعله مثاراً للتهكم، والاتهام بالتسيب والضعف، وقال الحاج إبراهيم في رجاء:

ـ «من أجلي يا عبد المتجلي.. ومن أجل شرف العائلة أرجو أن تغير من أسلوبك القديم..».

ولما لم يجب عبد المتجلي استطرد العمدة قائلاً:

ـ «إنك تعود خاوي الوفاض كما يقولون.. وليس معك «ونش» ولا غيره.. أرجو أن تدع هذه الأوهام والخزعبلات..».

توترت أعصاب عبد المتجلي عندما سمع كلمة «الونش»، حاول أن يكظم أساه، لكن الكلمات تدفقت على الرغم منه، كان يحاول جاهداً أن ينظمها وينقيها من ذرات النار التي شحنت الحروف، وقال عبد المتجلي.

ـ «إنني أحيا بالأمل.. وليس بالونش وحده يحيا الإنسان برغم أهميته.. إن أشياء كثيرة ضائعة يجب أن يبحث عنها الناس حتى يجدوها.. عندئذ سيجدون الونش.. هل تعلم شيئاً يا حضرة العمدة عن التلوث البيئي، وطبقة «الأوزون».. إن تلوث الهواء قد أحدث ثقباً بالسماء.. ولهذا حدثت الفياضانات في كل أنحاء العالم.. واهتاجت الأعاصير المدمرة.. وارتفعت درجة

الحرارة.. وسادت موجات الجفاف في آسيا وأفريقيا.. لسوف يذوب الثلج في المحيط المتجمد الجنوبي.. وستغرق الدنيا، ويفنى العالم.. و.. و...».

نظر إليه العمدة في ذهول، واتسعت عيناه، وانتابه خوف شديد، يبدو أن عبد المتجلي قد أصابته لوثة جنون فعلية شديدة.. هذا المجنون لا يؤمن جانبه، أيمكن أن ينقض على العمدة فجأة، ويغرز أصابعه في عينيه ويقتلعهما من محجريهما؟! أم أنه قد ينشب أظافره في عنقه ويعتصره اعتصاراً؟؟ وتلفت العمدة حوله، ولشدة دهشته وجد أن شيخ الخفراء والخفراء قد غادروا المجلس وهو يجلس الآن وحيداً مع عبد المتجلي، وسرعان ما صرخ في هستيريا:

ـ «يا شيخ الخفر.. يا ثور..».

إبتسم عبد المتجلي في هدوء، ورشف رشفة من فنجال القهوة، وقال:

ـ «إن قضية التلوث تشغل العالم كله الآن يا حضرة العمدة.. وعندنا في الدولة لجنة عليا لحماية البيئة، لكن للأسف العالم كله يخطىء في فهم قضية التلوث.. إنهم يركزون على التلوث المادي الذي تسببه الغازات والكيماويات وغيرها، وينسون أهم تلوث...».

قال العمدة وكأنه يجاريه ويجامله:

ـ «ما هو يا عبد المتجلي؟».

ـ «التلوث الأخـلاقي.. لـو لم يكن هنـاك تلوث أخلاقي، لما وقعنا في خطر التلوث البيئي..».

لم يكن العمدة حريصاً على أن يعي أو يفهم ما يقال، فقد كان المسيطر على فكره هو أن عبد المتجلي مجنون، وأنه قد يقدم على فعلة تقضي على حياته، وتنهد العمدة في ارتياح عندما حضر شيخ الخفراء ومساعده، وفي أيديهم العصي الخيزران، إطمأن العمدة، ومدَّد ساقيه في ثقة وهو ينظر إلى الخفراء وشيخهم وقال:

ـ «هل سمعتم؟؟».

ـ «أوامرك يا حضرة العمدة».

قهقه بصوت أجش مقيت وقال:

ـ «عبـد المتجلي يقـول أنـه حـدث ثقب كبيـر في السماء..».

إقترب شيخ الخفراء من حافة الشرفة، وصعد بصره إلى السماء، وأخذ يجوب بنظراته هنا وهناك، ثم قال:

ـ «أنا لا أرى شيئاً يا حضرة العمدة..».

وضحك الجميع وقال:

ـ «لكن عبد المتجلي يراه..».

ثم التفت العمدة إلى عبد المتجلي الصامت وقال:

ـ «طبقة الـ.. الإيه يا عبد المتجلي؟؟».

ـ «الأوزون يا حضرة العمدة..».

وصافحه حضرة العمدة مودعاً، بعد أن أوصاه بالعديد من النصائح، ونهاه عن الاستغراق في الأوهام والخرافات، ولا داعي لأن يذكر موضوع الثقب ـ أو الخرم ـ الذي يزعم أنه موجود في السماء، حتى لا يسخر الناس منه، وعليه أن يعود في الصباح الباكر إلى عمله في مجلس القرية، فقد أمر المحافظ أطال الله بقاءه بإلغاء الفصل الصادر في حقه، وصرف جميع مرتباته الشهرية عن المدة المنصرمة، ومعها المكافآت والحوافز والعلاوات الدورية، وقد بشره حضرة العمدة بأنه سوف يكون ابتداءً من الغد مسئولاً عن المسرح ونشاطاته وكذلك صالة العرض السينمائي في نادي الشباب بالقرية..

الحقيقة أن عبد المتجلي شعر بشيء من الابتهاج، لأنه يحب المسرح فعلاً، وقال في سخرية:

ـ «لن أتعب في توفير الكوادر الفنية القادرة على

التمثيل المتقن.. المواهب في كل مكان.. البلد فيها تضخم وبطالة مقنعة في فئة الممثلين..

هذا زمان التمثيل.. زمان الأقنعة يا حضرة العمدة..».

ثم صافحه عبد المتجلي، ويمم وجهه شطر الباب، وبعد خطوات، التفت إلى العمدة قائلاً:

ـ «نسيت أن أخبرك أن زوجتي حامل.. وستلد..».

قال العمدة في غير اكتراث:

ـ «مبروك.. خير خلف لخير سلف.. المهم ألا تحدث أحداً عن ثقوب السماء.. شفاك الله وشفانا».

في ثالث يوم فوجىء عبد المتجلي بالأطفال يدقون عليه باب البيت في الصباح، وما إن فتح لهم حتى انفلتوا متزاحمين إلى الداخل، وفي ثوان قليلة جلسوا القرفصاء على الحصير، وقال كبيرهم:

ـ «يا عم عبد المتجلي جئنا إليك لتحكي لنا عن العصابة المجرمة التي ثقبت السماء..».

ـ «هل سمعتم بها؟».

ـ «نعم..».

قالوها بصوت واحد منغم.

فهز رأسه، وابتسم وتجلى النور على وجهه وقال:

ـ «حسناً.. لسوف أحكي لكم عن كل شيء..».

فصفقوا وضحكوا وطربوا.

ثم أرهفوا آذانهم..

ـ «صلوا بنا على طه الرسول.. صلى الله عليه وسلم.. كان يا ما كان..».

نجيب الكيلاني
الإثنين في ١٩٨٩/٢/٦